فَصْلٌ

بيان معنى تأييد المسيح بروح القدس

قَالُوا: وَقَالَ أَيْضًا: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠].

فَيُقَالُ: هَذَا مِمَّا لَا رَيْبَ فِيهِ، وَلَا حَجَّةَ لَكُمْ فِيهِ، بَلْ هُوَ حُجَّةٌ عَلَيْكُم، فَإِنَّ اللهَ أَيَّدَ المَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِرُوحِ القُدُسِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الآيَةِ وَقَالَ تَعَالَىٰ: فِي البَقَرَةِ: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وَهَذَا لَيْسَ مُخْتَصًّا بِالمَسِيحِ، بَلْ قَدْ أُيِّدَ غَيْرُهُ بِذَلِكَ، وَقَدْ ذَكَرُوا هُمْ أَنَّهُ قَالَ لِدَاوُدَ: رُوحُكَ القُدُسُ لَا تُنْزَعُ مِنِّي، وَقَدْ قَالَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ: «**اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ**»، وَفِي لَفْظٍ: «**رُوحُ القُدُسِ مَعَكَ مَا دُمْتَ تُنَافِحُ عَنْ نَبِيِّهِ**» وَكِلَا اللَّفْظَيْنِ فِي الصَّحِيحِ(١).

وَعِنْدَ النَّصَارَى أَنَّ الحَوَارِيِّينَ حَلَّتْ فِيهِمْ رُوحُ القُدُسِ، وَكَذَلِكَ عِنْدَهُمْ رُوحُ القُدُسِ حَلَّتْ فِي جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٢].

---

(١) سبق تخريجه مرارًا.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

وَقَالَ: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧].

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ رُوحَ القُدُسِ هُنَا جِبْرِيلُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢].

وَقَالَ: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ [غافر: ١٥].

فَهَذِهِ الرُّوحُ الَّتِي أَوْحَاهَا وَالَّتِي تَنْزِلُ بِهَا المَلَائِكَةُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ - غَيْرُ الرُّوحِ الأَمِينِ الَّتِي تَنْزِلُ بِالكِتَابِ، وَكِلَاهُمَا يُسَمَّى رُوحًا، وَهُمَا مُتَلَازِمَانِ؛ فَالرُّوحُ الَّتِي يَنْزِلُ بِهَا المَلَكُ مَعَ الرُّوحِ الأَمِينِ الَّتِي يَنْزِلُ بِهَا رُوحُ القُدُسِ يُرَادُ بِهَا هَذَا وَهَذَا.

وَبِكِلَا القَوْلَيْنِ فَسَّرَ المُفَسِّرُونَ قَوْلَهُ فِي المَسِيحِ: ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ إِنَّ المُرَادَ بِذَلِكَ حَيَاةُ اللهِ، وَلَا اللَّفْظَ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَلَا اسْتُعْمِلَ فِيهِ.

وَهُمْ إِمَّا أَنْ يُسَلِّمُوا أَنَّ رُوحَ القُدُسِ فِي حَقِّ غَيْرِهِ لَيْسَ المُرَادُ بِهَا حَيَاةَ اللهِ، فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ لَهَا مَعْنًى غَيْرَ الحَيَاةِ، فَلَوِ اسْتُعْمِلَ فِي حَيَاةِ اللهِ أَيْضًا لَمْ يَتَعَيَّنْ أَنْ يُرَادَ بِهَا ذَلِكَ فِي حَقِّ المَسِيحِ، فَكَيْفَ وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ فِي حَيَاةِ اللهِ فِي حَقِّ المَسِيحِ.

وَإِمَّا أَنْ يَدَّعُوا أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا حَيَاةُ اللهِ فِي حَقِّ الأَنْبِيَاءِ وَالحَوَارِيِّينَ، فَإِنْ قَالُوا ذَلِكَ لَزِمَهُمْ أَنْ يَكُونَ اللَّاهُوتُ حَالًّا فِي جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ وَالحَوَارِيِّينَ، وَحِينَئِذٍ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَبَيْنَ المَسِيحِ.

وَيَلْزَمُهُمْ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ فِي المَسِيحِ لَاهُوتَانِ: لَاهُوتُ الكَلِمَةِ، وَلَاهُوتُ الرُّوحِ، فَيَكُونُ قَدِ اتَّحَدَ بِهِ أُقْنُومَانِ.

ثُمَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، يَمْتَنِعُ أَنْ يُرَادَ بِهَا حَيَاةُ اللهِ، فَإِنَّ حَيَاةَ اللهِ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ لَا تَقُومُ بِغَيْرِهِ، وَلَا تَخْتَصُّ بِبَعْضِ المَوْجُودَاتِ غَيْرَهُ، وَأَمَّا عِنْدَهُم فَالمَسِيحُ، هُوَ اللهُ الخَالِقُ، فَكَيْفَ يُؤَيَّدُ بِغَيْرِهِ، وَأَيْضًا فَالْمُتَّحِدُ بِالمَسِيحِ هُوَ الكَلِمَةُ دُونَ الحَيَاةِ، فَلَا يَصِحُّ تَأْيِيدُهُ بِهَا.

فَتَبَيَّنَ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُحَرِّفُوا القُرْآنَ كَمَا حَرَّفُوا غَيْرَهُ مِنَ الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ، وَأَنَّ كَلَامَهُمْ فِي تَفْسِيرِ المُتَشَابِهِ مِنَ الكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ - مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ.

❁❁❁

فَصْلٌ

قَالُوا: وَقَالَ أَيْضًا: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النِّسَاءِ: ١٦٤].

فَيُقَالُ لَهُم: وَأَيُّ حُجَّةٍ لَكُمْ فِي هَذَا، وَإِنَّمَا هُوَ حُجَّةٌ عَلَيْكُم، فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ اللهَ كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَكَلَامُ اللهِ الَّذِي سَمِعَهُ مِنْهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَيْسَ هُوَ المَسِيحُ فَعُلِمَ أَنَّ المَسِيحَ لَيْسَ هُوَ كَلَامُ اللهِ، وَعِنْدَهُمْ هُوَ كَلِمَةُ اللهِ، وَهُوَ عِلْمُ اللهِ، وَهُوَ اللهُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ كَلَامَ اللهِ كَثِيرٌ كَالتَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِهِ، وَلَيْسَ المَسِيحُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَالمَسِيحُ عِنْدَهُمْ خَالِقٌ، وَلَوْ كَانَ المَسِيحُ نَفْسَ كَلَامِ اللهِ لَمْ يَكُنْ خَالِقًا وَلَا مَعْبُودًا، فَإِنَّ كَلَامَ اللهِ لَمْ يَخْلُقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَلَا كَلَامُ اللهِ هُوَ الإِلَهُ المَعْبُودُ، بَلْ كَلَامُهُ كَسَائِرِ صِفَاتِهِ مِثْلُ حَيَاتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ: يَا عِلْمَ اللهِ اغْفِرْ لِي، وَلَا يَا كَلَامَ اللهِ اغْفِرْ لِي، وَإِنَّمَا يُعْبَدُ وَيُدْعَى الإِلَهُ المَوْصُوفُ بِالعِلْمِ، وَالقُدْرَةِ، وَالكَلَامِ الَّذِي كَلَّمَ بِهِ مُوسَى تَكْلِيمًا.

❁❁❁

فَصْلٌ

قَالُوا: وَقَالَ أَيْضًا فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

فَيُقَالُ: أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾.

وَقَوْلُهُ: فِي سُورَةِ الأَنْبِيَاءِ: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

فَهَذَا قَدْ فَسَّرَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧-١٩].

وَفِي القِرَاءَةِ الأُخْرَى: ﴿لِيَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ رَسُولُهُ وَرُوحُهُ، وَأَنَّهُ تَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا، وَأَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ إِلَيْهَا، فَعُلِمَ أَنَّ رُوحَهُ مَخْلُوقٌ مَمْلُوكٌ لَهُ، لَيْسَ الْمُرَادُ حَيَاتَهُ الَّتِي هِيَ صِفَتُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾.

وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ فِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

وَقَدْ شُبِّهَ الْمَسِيحُ بِآدَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وَالشُّبْهَةُ فِي هَذَا نَشَأَتْ عِنْدَ بَعْضِ الْجُهَّالِ مِنْ أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا قَالَ: رُوحِي، فَرُوحُهُ فِي هَذَا الْبَابِ هِيَ الرُّوحُ الَّتِي فِي الْبَدَنِ، وَهِيَ عَيْنٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا، وَإِنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْنِي بِهَا الْحَيَاةَ، وَالإِنْسَانُ مُؤَلَّفٌ مِنْ بَدَنٍ وَرُوحٍ، وَهِيَ عَيْنٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا عِنْدَ سَلَفِ الْمُسْلِمِينَ وَأَئِمَّتِهِمْ وَجَمَاهِيرِ الأُمَمِ.

وَالـرَّبُّ تَعَـالَى مُنَزَّهٌ عَنْ هَذَا، وَأَنَّـهُ لَيْسَ مُرَكَّبًا مِـنْ بَدَنٍ وَرُوحٍ، وَلَا يَجُـوزُ أَنْ يُرَادَ بِرُوحِهِ مَا يُرِيدُ الإِنْسَـانُ بِقَوْلِهِ: رُوحِي، بَلْ تُضَـافُ إِلَيْهِ مَلَائِكَتُهُ وَمَا يُنَزِّلُهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ مِنَ الوَحْيِ وَالهُدَى وَالتَّأْيِيدِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

❁ ❁ ❁

فَصْلٌ

قَالُوا: وَسَائِرُ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ الكِتَابَ كَلَامُ اللهِ، وَلَا يَكُونُ كَلَامٌ إِلَّا لِحَيٍّ نَاطِقٍ، وَهَذِهِ صِفَاتٌ جَوْهَرِيَّةٌ تَجْرِي مَجْرَى الأَسْمَاءِ، وَكُلُّ صِفَةٍ مِنْهَا غَيْرُ الأُخْرَى، فَالإِلَهُ وَاحِدٌ، خَالِقٌ وَاحِدٌ، وَرَبٌّ وَاحِدٌ لَا يَتَجَزَّأُ.

فَيُقَالُ لَهُم: أَمَّا قَوْلُ الْمُسْلِمِينَ إِنَّ الكِتَابَ - أَيِ القُرْآنَ - كَلَامُ اللهِ، فَهَذَا حَقٌّ، وَالكَلَامُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمُتَكَلِّمٍ.

وَالْمُسْلِمُونَ يَقُولُونَ: إِنَّ اللهَ حَيٌّ مُتَكَلِّمٌ، وَإِنَّهُ تَكَلَّمَ بِالتَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِهِ، وَالقُرْآنُ قَدْ أَخْبَرَ بِكَلَامِ اللهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، وَهَلْ يُسَمَّى نَاطِقًا وَكَلَامُهُ نُطْقًا؟ فِيهِ نِزَاعٌ، فَبَعْضُ الْمُسْلِمِينَ يُجِيزُهُ، وَبَعْضُهُمْ يَمْنَعُ مِنْهُ لِكَوْنِهِ لَمْ يَرِدْ بِهِ الشَّرْعُ، وَلَيْسَ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ تَسْمِيَةُ اللهِ نَاطِقًا، بِخِلَافِ لَفْظِ القَوْلِ وَالكَلَامِ، وَقَدْ تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ ظُهُورِ البِدَعِ فِيهِمْ كَمَا تَنَازَعَ أَهْلُ الكِتَابِ فِي كَلَامِ اللهِ، هَلْ هُوَ قَائِمٌ بِهِ، أَوْ مَخْلُوقٌ مُنْفَصِلٌ عَنْهُ.

وَالَّذِي عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا وَجُمْهُورُهَا، أَنَّ كَلَامَ اللهِ قَائِمٌ بِهِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَا يُوصَفُ بِهِ مِنَ الحَيَاةِ وَالقُدْرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَأَحْدَثَ قَوْمٌ مِنْهُمْ بَعْدَ انْقِرَاضِ الصَّحَابَةِ وَأَكَابِرِ التَّابِعِينَ، بَعْدَ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ، وَشَارَكَهُمْ فِي هَذِهِ البِدْعَةِ كَثِيرٌ مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى.

وَظَهَرَتْ هَذِهِ المَقَالَةُ بَعْدَ المِائَةِ الثَّانِيَةِ، وَانْتَصَرَ لَهَا قَوْمٌ مِنَ الوُلَاةِ، وَغَيْرِهِم، ثُمَّ أَطْفَأَهَا اللهُ بِمَنْ أَقَامَهُ اللهُ مِنْ أَئِمَّةِ الإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ الَّذِينَ بَيَّنُوا فَسَادَهَا وَبَيَّنُوا مَا اتَّفَقَ

عَلَيْهِ السَّلَفُ مِنْ أَنَّ كَلَامَ اللهِ مُنَزَّلٌ مِنْهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، بَلْ مِنْهُ بَدَأَ، لَمْ يَبْتَدِئْ مِنْ شَيْءٍ مِنَ المَخْلُوقَاتِ، وَمَعَ هَذَا فَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ المُسْلِمِينَ: إِنَّ كَلَامَ اللهِ يَكُونُ إِلَهًا وَلَا رَبًّا.

وَكَذَلِكَ حَيَاتُهُ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُم: إِنَّ حَيَاتَهُ تَكُونُ إِلَهًا وَلَا رَبًّا، وَلَا أَنَّهُ مُسَاوٍ لِلرَّبِّ تَعَالَى فِي الجَوْهَرِ.

❁ ❁ ❁

فَصْلٌ

نقاش دعواهم أن الأقانيم صفات جوهرية تجري مجرى الأسماء

وَأَمَّا قَوْلُهُم: هَذِهِ صِفَاتٌ جَوْهَرِيَّةٌ تَجْرِي مَجْرَى أَسْمَاءٍ.

فَإِنْ أَرَادُوا بِقَوْلِهِم: جَوْهَرِيَّةً أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ جَوْهَرٌ، فَهَذَا كَلَامٌ ظَاهِرُ الفَسَادِ فَإِنَّ الصِّفَةَ القَائِمَةَ بِغَيْرِهَا لَا تَكُونُ جَوْهَرًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ حَرَارَةَ النَّارِ القَائِمَةَ بِهَا جَوْهَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ كَالنَّارِ، فَهُوَ إِمَّا مُصَابٌ فِي عَقْلِهِ وَإِمَّا مُسَفْسِطٌ مُعَانِدٌ.

وَالأَوَّلُ- يَسْتَحِقُّ عِلَاجَ المَجَانِينِ.

وَالثَّانِي- يَسْتَحِقُّ العُقُوبَةَ الَّتِي تَرْدَعُهُ عَنِ العِنَادِ.

ثُمَّ إِنْ جَازَ أَنْ تَكُونَ الصِّفَةُ جَوْهَرًا كَانَتِ القُدْرَةُ أَيْضًا جَوْهَرًا.

وَإِنْ أَرَادُوا بِقَوْلِهِم: جَوْهَرِيَّةً أَنَّهَا صِفَاتٌ ذَاتِيَّةٌ، وَغَيْرُهَا صِفَاتٌ فِعْلِيَّةٌ كَالخَالِقِ وَالرَّازِقِ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةَ مِنْهَا القُدْرَةُ وَغَيْرُهَا فَلَمْ تَنْحَصِرْ فِي هَذِهِ.

وَأَيْضًا فَالكَلَامُ، وَإِنْ كَانَ قَائِمًا بِذَاتِهِ، فَقِيلَ: هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَهُوَ قَوْلُ السَّلَفِ وَالأَكْثَرِينَ، وَقِيلَ: لَيْسَ كَذَلِكَ.

وَالمُتَكَلِّمُ قِيلَ: هُوَ مَنْ فَعَلَ الكَلَامَ وَلَوْ كَانَ مُنْفَصِلًا عَنْهُ، وَقِيلَ: هُوَ مَنْ قَامَ بِهِ الكَلَامُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَقِيلَ: المُتَكَلِّمُ مَنْ قَامَ بِهِ الكَلَامُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَهَذَا قَوْلُ السَّلَفِ وَالأَكْثَرِينَ، فَبَطَلَ قَوْلُهُمْ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ.

وَإِنْ أَرَادُوا بِالجَوْهَرِيَّةِ أَنَّهَا ذَاتِيَّةٌ مُقَوِّمَةٌ، وَبَاقِي الصِّفَاتِ عَرَضِيَّةٌ عَلَى رَأْيِ أَهْلِ المَنْطِقِ اليُونَانِ الَّذِينَ يُفَرِّقُونَ فِي الصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ لِلْمَوْصُوفِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، كَانَ هَذَا فَاسِدًا مِنْ وُجُوهٍ:

مِنْهَا: أَنَّ تَفْرِيقَ هَؤُلَاءِ فِي الصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ لِلْمَوْصُوفِ بَيْنَ صِفَةٍ وَصِفَةٍ، وَجَعْلَ بَعْضِهَا ذَاتِيًّا مُقَوِّمًا دَاخِلًا فِي المَاهِيَّةِ، وَبَعْضِهَا عَرَضِيًّا لَاحِقًا خَارِجًا عَنِ المَاهِيَّةِ - كَلَامٌ بَاطِلٌ عِنْدَ جَمَاهِيرِ نُظَّارِ الأُمَمِ مِنْ أَهْلِ المِلَلِ، وَغَيْرِهِمْ كَمَا قَدْ بُسِطَ الكَلَامُ عَلَيْهِ فِي الرَّدِّ عَلَى هَؤُلَاءِ المُتَفَلْسِفَةِ، وَبَيِّنٌ أَنَّ مَا يَدَّعُونَهُ مِنْ تَرْكِيبِ الأَنْوَاعِ مِنَ الأَجْنَاسِ وَالفُصُولِ إِنَّمَا هُوَ تَرْكِيبٌ فِي الأَذْهَانِ لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي الأَعْيَانِ، وَأَنَّ مَا يَقُومُ بِالأَذْهَانِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ تَصَوُّرِ الأَذْهَانِ.

فَتَارَةً يَتَصَوَّرُ الشَّيْءَ مُجْمَلًا، وَتَارَةً يَتَصَوَّرُهُ مُفَصَّلًا، وَمَا سَمَّوْهُ تَمَامَ المَاهِيَّةِ، وَالدَّاخِلَ فِي المَاهِيَّةِ، وَالخَارِجَ عَنْهَا، اللَّازِمَ لَهَا - يَعُودُ عِنْدَ التَّحْقِيقِ إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ بِالمُطَابَقَةِ وَالتَّضَمُّنِ وَالِالتِزَامِ.

وَمَدْلُولُ اللَّفْظِ هُوَ بِحَسَبِ مَا يَعْنِيهِ المُتَكَلِّمُ وَيَقْصِدُهُ وَيَتَصَوَّرُهُ، وَهَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ إِرَادَاتِ النَّاسِ لَا يَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى حَقِيقَةٍ عَقْلِيَّةٍ وَلَا صِفَةٍ ذَاتِيَّةٍ لِلْمَوْجُودَاتِ.

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ كَلَامُهُمْ بَاطِلًا لَمْ يُمْكِنْهُمْ ذِكْرُ فَرْقٍ صَحِيحٍ بَيْنَ الذَّاتِيِّ وَالعَرَضِيِّ اللَّازِمِ إِذَا كَانَ كِلَاهُمَا لَازِمًا لِلْمَوْصُوفِ، بَلْ ذَكَرُوا ثَلَاثَةَ فُرُوقٍ، وَالثَّلَاثَةُ بَاطِلَةٌ، وَاعْتَرَفَ حُذَّاقُهُمْ بِبُطْلَانِهَا، كَقَوْلِهِم: إِنَّ الذَّاتِيَّ يَثْبُتُ لِلْمَوْصُوفِ، بِلَا وَسَطٍ، وَالعَرَضِيَّ اللَّازِمَ إِنَّمَا يَثْبُتُ بِوَسَطٍ.

ثُمَّ حُذَّاقُهُمْ يُفَسِّرُونَ الوَسَطَ بِالدَّلِيلِ، كَمَا فَسَّرَهُ ابْنُ سِينَا[1].

---

(١) الحسين بن عبد الله بن سينا أبو علي شرف الملك الفيلسوف الرئيس صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبقات والإلهيات أصله من بلخ ومولده في إحدى قرى بخاري سنة ٣٧٠هـ، ونشأ وتعلم بها وطاف البلاد وعاد في آخر حياته إلى همزان ومات بها سنة ٤٢٨هـ.
قال ابن القيم: كان ابن سينا هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم من القرامطة الباطنيين.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُفَسِّرُ الوَسَطَ بِصِفَةٍ قَائِمَةٍ لِلْمَوْصُوفِ، كَمَا يُفَسِّرُهُ الرَّازِيُّ[1] وَغَيْرُهُ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَفْهَمُوا مُرَادَ أُولَئِكَ فَزَادَ غَلَطُهُم، وَأُولَئِكَ أَرَادُوا بِالوَسَطِ الدَّلِيلَ، كَمَا يُرِيدُونَ بِالحَدِّ الأَوْسَطِ مَا يُقْرَنُ بِاللَّامِ فِي قَوْلِكَ: لِأَنَّهُ، فَصَارَ العَرَضِيُّ اللَّازِمُ عِنْدَهُمْ مَا يُعْلَمُ ثُبُوتُهُ لِلْمَوْصُوفِ بِدَلِيلٍ، وَهَذَا لَا يَرْجِعُ إِلَى حَقِيقَةٍ ثَابِتَةٍ فِي نَفْسِ الأَمْرِ، بَلْ هَذَا أَمْرٌ يَتَعَلَّقُ بِالعَالِمِ بِالصِّفَاتِ.

فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ تَامَّ التَّصَوُّرِ فَيَعْلَمُ لُزُومَ الصِّفَةِ لِلْمَوْصُوفِ، بِلَا دَلِيلٍ.

وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَكُونُ تَامَّ التَّصَوُّرِ فَلَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا بِدَلِيلٍ، ثُمَّ كُلُّ مَا كَانَ مُسْتَلْزِمًا لِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ يُمْكِنُ الِاسْتِدْلَالُ بِهِ عَلَيْهِ، إِذَا كَانَ الدَّلِيلُ هُوَ الَّذِي يَلْزَمُ مِنْ تَحَقُّقِهِ تَحَقُّقُ المَدْلُولِ، فَيَكُونُ الوَسَطُ كُلَّ مَا كَانَ مُسْتَلْزِمًا لِلْعَرَضِ، فَيَكُونُ العَرَضُ لَازِمَ اللَّازِمِ.

وَهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّ مِنَ العَرَضِيَّاتِ مَا يَلْزَمُ، بِلَا وَسَطٍ، وَقَدْ مَثَّلُوا ذَلِكَ بِالزَّوْجِيَّةِ وَالفَرْدِيَّةِ فِي العَدَدِ، كَالعِلْمِ بِأَنَّ الأَرْبَعَةَ زَوْجٌ، وَالثَّلَاثَةَ فَرْدٌ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرًا، لَكِنَّ العِلْمَ بِأَنَّ خَمْسَمِائَةٍ وَثَلَاثَةً وَأَرْبَعِينَ نِصْفُ أَلْفٍ وَسِتَّةٍ وَثَمَانِينَ، قَدْ يَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ، وَقَدْ يَفْتَقِرُ إِلَى تَأَمُّلٍ وَفِكْرٍ.

وَهُمْ يَقُولُونَ مَا يَقُولُ ابْنُ سِينَا أَفْضَلُ مُتَأَخِّرِيهِم، وَغَيْرُهُ مِنْ أَنَّ العَرَضَ المُنْقَسِمَ إِلَى الكَيْفِ وَالكَمِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ هُوَ ذَاتِيٌّ لِمَوْصُوفَاتِهِ.

---

(١) هو: محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري أبو عبد الله فخر الدين الرازي الإمام المفسر قرشي النسب أصله من طبرستان ولد في الري سنة ٥٤٤هـ، ورحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان وتوفي في وهران سنة ٦٠٦هـ، وكان يحسن الفارسية وكان واعظًا بارعًا بها وبالعربية أيضًا له كتب كثيرة من أشهرها «مفاتيح الغيب» في تفسير القرآن الكريم وكتب في التوحيد وعلم الكلام والبلاغة وغيرها.

وَاللَّوْنُ الْمُنْقَسِمُ إِلَى السَّوْدَاءِ وَالبَيَاضِ هُوَ ذَاتِيٌّ لِلْمُتَلَوِّنِ، وَالسَّوَادِيَّةُ وَالبَيَاضِيَّةُ صِفَتَانِ ذَاتِيَّتَانِ، بِخِلَافِ الزَّوْجِيَّةِ وَالفَرْدِيَّةِ.

قَالُوا: لِأَنَّ كَوْنَ هَذَا أَسْوَدَ وَأَبْيَضَ وَعَرَضًا قَائِمًا بِغَيْرِهِ، لَا يَفْتَقِرُ إِلَى اسْتِدْلَالٍ وَنَظَرٍ بِخِلَافِ كَوْنِ هَذَا العَدَدِ زَوْجًا أَوْ فَرْدًا، فَإِنَّ هَذَا قَدْ يَفْتَقِرُ إِلَى نَظَرٍ وَاسْتِدْلَالٍ، فَإِنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ أَوْ لَا يَنْقَسِمُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا فَرْقٌ يَعُودُ إِلَى عِلْمِ العَالِمِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، هَلْ هُوَ جَلِيٌّ أَوْ خَفِيٌّ، وَهَلْ يَفْتَقِرُ إِلَى نَظَرٍ وَاسْتِدْلَالٍ أَوْ لَا يَفْتَقِرُ، لَيْسَ هُوَ فَرْقًا يَعُودُ إِلَى الصِّفَةِ فِي نَفْسِهَا وَلَا إِلَى مَوْصُوفِهَا، فَعُلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ مَا جَعَلُوهُ ذَاتِيًّا مُقَوِّمًا دَاخِلًا فِي المَاهِيَّةِ، وَمَا جَعَلُوهُ عَرَضِيًّا لَازِمًا خَارِجًا عَنِ المَاهِيَّةِ - فَرْقٌ يَعُودُ إِلَى نَفْسِ المَاهِيَّةِ الَّتِي هِيَ الذَّاتُ المَوْصُوفَةُ المَوْجُودَةُ فِي الخَارِجِ، وَلَا إِلَى صِفَاتِهَا، بَلْ جَمِيعُ صِفَاتِهَا اللَّازِمَةِ لَهَا - سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ، وَلَيْسَتِ المَاهِيَّةُ مُرَكَّبَةً مِنْ هَذَا دُونَ هَذَا، وَلَا فِيهَا شَيْءٌ يَتَقَدَّمُ عَلَى المَاهِيَّةِ فِي الوُجُودِ الخَارِجِيِّ، كَمَا يَقُولُونَ: إِنَّ الذَّاتِيَّ يَتَقَدَّمُ عَلَى المَاهِيَّةِ فِي الوُجُودِ وَالذِّهْنِ.

وَلَا الصِّفَاتُ جَوَاهِرُ مَوْجُودَةٌ فِي الخَارِجِ لَهَا أَجْزَاءٌ كَأَجْزَاءِ الأَجْسَامِ المُرَكَّبَةِ، وَإِنَّمَا هِيَ صِفَاتٌ قَائِمَةٌ بِالمَوْصُوفِ يَمْتَنِعُ تَقَدُّمُ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَى المَوْصُوفِ.

وَلَكِنْ إِذَا قِيلَ فِي الإِنْسَانِ: هُوَ جِسْمٌ حَسَّاسٌ تَامٌّ مُتَحَرِّكٌ بِالإِرَادَةِ نَاطِقٌ - فَهُنَا قَدْ يَتَصَوَّرُ الذِّهْنُ هَذِهِ الأُمُورَ، وَيُعَبِّرُ عَنْهَا، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا جُزْءٌ مِنَ الجُمْلَةِ الَّتِي فِي ذِهْنِهِ وَلِسَانِهِ.

وَالجُمْلَةُ الَّتِي فِي ذِهْنِهِ وَلِسَانِهِ مُرَكَّبَةٌ مِنْ هَذِهِ الأَجْزَاءِ لَا أَنَّ الإِنْسَانَ المَوْجُودَ فِي الخَارِجِ مُرَكَّبٌ مِنْ هَذِهِ الأَجْزَاءِ، وَأَنَّهَا مُتَقَدِّمَةٌ عَلَيْهِ أَوْ أَنَّهَا جَوَاهِرُ، فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ مِمَّا يُعْلَمُ بِصَرِيحِ العَقْلِ أَنَّهُ بَاطِلٌ، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ المُتَفَلْسِفَةَ اليُونَانَ وَمَنِ اتَّبَعَهُم - كَثِيرًا مَا يَشْتَبِهُ عَلَيْهِمْ مَا يَتَصَوَّرُونَهُ فِي الأَذْهَانِ بِمَا يُوجَدُ فِي الأَعْيَانِ، كَمَا أَثْبَتَ مَنْ أَثْبَتَ مِنْ قُدَمَائِهِمْ

مِثْلُ فِيثَاغُورْسَ [١] وَأَتْبَاعِهِ - أَعْدَادًا مُجَرَّدَةً مَوْجُودَةً فِي الخَارِجِ، وَقَدْ رَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ سَائِرُ العُقَلَاءِ، كَمَا رَدَّهُ مَنْ بَعْدَهُ مِنْهُم، وَقَالُوا: إِنَّ العَدَدَ المُجَرَّدَ، وَالمِقْدَارَ المُجَرَّدَ إِنَّمَا يُوجَدُ فِي الذِّهْنِ لَا فِي الخَارِجِ، وَإِنَّمَا يُوجَدُ فِي الخَارِجِ المَعْدُودَاتُ وَالمُقَدَّرَاتُ، مِثْلُ الأَجْسَامِ المُتَفَرِّقَةِ الَّتِي تُعَدُّ كَالكَوَاكِبِ، أَوِ المُتَّصِلَةِ الَّتِي تُقَدَّرُ كَالأَفْلَاكِ، وَذَلِكَ هُوَ المُتَّصِفُ بِالكَمِّ المُتَّصِلِ وَالكَمِّ المُنْفَصِلِ المَوْجُودِ فِي الخَارِجِ.

وَأَثْبَتَ أَصْحَابُ أَفْلَاطُونَ [٢] الكُلِّيَّاتِ العَقْلِيَّةَ فِي الخَارِجِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا المُثُلَ الأَفْلَاطُونِيَّةَ وَزَعَمُوا أَنَّهَا قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ، وَأَثْبَتُوا بُعْدًا مَوْجُودًا مُجَرَّدًا جَوْهَرًا: هُوَ الخَلَاءُ، وَجَوْهَرًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ، هُوَ الدَّهْرُ، وَجَوْهَرًا مُجَرَّدًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ: هُوَ المَادَّةُ وَالهَيُولَى الأَزَلِيَّةُ.

وَهَذِهِ كُلُّهَا إِنَّمَا تُتَصَوَّرُ فِي الأَذْهَانِ لَا فِي الأَعْيَانِ، بَلْ وَمَا أَثْبَتُوهُ مِنَ العُقُولِ المُجَرَّدَةِ العَشْرَةِ هِيَ أَيْضًا عِنْدَ التَّحْقِيقِ تَرْجِعُ إِلَى مَا يُجَرِّدُهُ الذِّهْنُ، وَيُقَدِّرُهُ فِيهِ، لَا إِلَى مَوْجُودٍ فِي الخَارِجِ.

وَأَصْلُ قَوْلِهِمُ: المُجَرَّدَاتُ وَالمُفَارِقَاتُ هُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ مُفَارَقَةِ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ لِلْبَدَنِ بِالمَوْتِ، وَهَذَا حَقٌّ، فَإِنَّ الَّذِي عَلَيْهِ الأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُم، وَجُمْهُورُ العُقَلَاءِ أَنَّ الرُّوحَ تُفَارِقُ البَدَنَ، وَتَبْقَى بَعْدَ فِرَاقِ البَدَنِ، وَمَنْ قَالَ مِنْ مُتَكَلِّمَةِ أَهْلِ المِلَلِ إِنَّهُ لَا يَبْقَى بَعْدَ البَدَنِ رُوحٌ تُفَارِقُهُ، وَإِنَّ الرُّوحَ جُزْءٌ مِنَ البَدَنِ أَوْ عَرَضٌ مِنْ أَعْرَاضِ البَدَنِ، فَقَوْلُهُ - مَعَ أَنَّهُ

(١) **فيثاغورث**: هو فيلسوف يوناني شهير، ولد في ساموس من بلاد اليونان سنة ٥٧٢ أو ٥٨٠ ق.م. تقريبًا، ويقال: إنه زار مصر ودرس الحكمة على أيدي الكهنة وتعلم الفلك والهندسة، ويقال: إنه مات سنة ٥٢٩ ق.م. وكان يرى أن العالم أشبه بعالم الأعداد منه بأي عالم آخر، وكان يقول بتناسخ الأرواح.

(٢) هو: أفلاطون بن أرسطن بن أرسطو فليسن، فيلسوف مشهور ولد في أثينا عاصمة بلاد اليونان سنة ٤٢٧ ق.م. وتتلمذ على سقراط وهو في العشرين من عمره واطلع على كتب الفلسفة ورحل إلى كثير من الأقطار يعلم الفلسفة ويكتب في مختلف الفنون، له مؤلفات ترجم البعض منها إلى اللغة العربية ومات سنة ٣٤٧ ق.م.

خَطَأٌ فِي العَقْلِ الصَّرِيحِ - هُوَ أَيْضًا مُخَالِفٌ لِكُتُبِ اللهِ المُنَزَّلَةِ وَلِرُسُلِهِ، وَلِمَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ المِلَلِ، وَهَذِهِ الأُمُورُ مَبْسُوطَةٌ فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ.

وَالمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ تَفْرِيقَ هَؤُلَاءِ اليُونَانِيِّينَ فِي الصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ لِلْمَوْصُوفِ بَيْنَ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ وَالعَرَضِيَّةِ اللَّازِمَةِ، وَجَعْلَهُمُ اللَّازِمَةَ: مِنْهَا مَا هُوَ لَازِمٌ لِلْمَاهِيَّةِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لَازِمٌ لِوُجُودِهَا - هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلَيْنِ فَاسِدَيْنِ لَهُم، خَالَفَهُمْ فِيهَا جُمْهُورُ عُقَلَاءِ الأُمَمِ مِنْ نُظَّارِ أَهْلِ المِلَلِ وَغَيْرِهِم.

أَحَدُ الأَصْلَيْنِ: هُوَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ جَعْلِهِمُ الصِّفَاتِ اللَّازِمَةَ لِلْمَوْصُوفِ هِيَ فِي الخَارِجِ مُنْقَسِمَةٌ إِلَى ذَاتِيٍّ، جُزْءٌ مِنَ المَاهِيَّةِ دَاخِلٌ فِيهَا، وَإِلَى عَرَضِيٍّ خَارِجٍ عَنْهَا لَازِمٍ لَهَا.

وَالثَّانِي: زَعْمُهُمْ أَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ مُمْكِنٍ وَلَهُ فِي الخَارِجِ مَاهِيَّةٌ هِيَ ذَاتُهُ وَحَقِيقَتُهُ - غَيْرُ المَوْجُودِ المَعْلُومِ المُعَيَّنِ الثَّابِتِ فِي الخَارِجِ، وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ فِيهِ مَا فِي الذِّهْنِ بِمَا فِي الخَارِجِ.

فَإِنَّهُ إِذَا أُرِيدَ بِالمَاهِيَّةِ مَا يُتَصَوَّرُ فِي الذِّهْنِ، وَهُوَ المَقُولُ فِي جَوَابِ مَا هُوَ، وَبِالوُجُودِ مَا هُوَ ثَابِتٌ مُتَحَقِّقٌ فِي الخَارِجِ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا غَيْرُ هَذَا، كَمَا يَقُولُونَ: إِنَّا نَتَصَوَّرُ المُثَلَّثَ قَبْلَ أَنْ نَعْلَمَ وُجُودَهُ فِي الخَارِجِ، فَعُلِمَ أَنَّ مَاهِيَّةَ المُثَلَّثِ غَيْرُ المُثَلَّثِ المَوْجُودِ فِي الخَارِجِ.

فَإِنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ: إِنْ أَرَدْتُمْ أَنَّ مَا يُتَصَوَّرُ فِي الذِّهْنِ مِنَ المُثَلَّثِ غَيْرُ المَوْجُودِ فِي الخَارِجِ فَهَذَا حَقٌّ، لَكِنْ لَيْسَ فِي هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فِي الخَارِجِ عَنِ الذِّهْنِ شَيْئَيْنِ:

أَحَدُهُمَا- مَاهِيَّةُ المُثَلَّثِ الَّتِي هِيَ حَقِيقَتُهُ وَذَاتُهُ.

الثَّانِي- المُثَلَّثُ المَوْجُودُ الَّذِي هُوَ زَاوِيَةُ الحَائِطِ.

وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنَّ فِي الخَارِجِ شَيْئَيْنِ، فَهَذَا غَلَطٌ، وَهَذَا المَوْضِعُ مِمَّا اشْتَبَهَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النُّظَّارِ حَتَّى صَارَ بَعْضُ أَكَابِرِهِمْ حَائِرًا مُتَوَقِّفًا.

وَبَعْضُهُمْ يَخْتَلِفُ قَوْلُهُ وَيَتَنَاقَضُ، وَسَبَبُ ذَلِكَ عَدَمُ تَمْيِيزِهِمْ بَيْنَ مَا يُتَصَوَّرُ فِي الأَذْهَانِ وَبَيْنَ مَا يُوجَدُ فِي الأَعْيَانِ، ثُمَّ هَذَا المَوْضُوعُ نَقَلُوهُ إِلَى الكَلَامِ فِي صِفَاتِ اللهِ اللَّازِمَةِ لَهُ، كَحَيَاتِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، هَلْ هِيَ ذَاتِيَّةٌ أَوْ عَرَضِيَّةٌ؟

فَإِنْ قِيلَ: ذَاتِيَّةٌ لَزِمَ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَجْزَاءٌ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَيْهِ تَرَكَّبَ مِنْهَا، وَإِنْ كَانَتْ عَرَضِيَّةً لَازِمَةً لَزِمَ أَنْ يَكُونَ قَابِلًا وَفَاعِلًا، فَإِنَّ كَوْنَهُ فَاعِلًا غَيْرُ كَوْنِهِ قَابِلًا، فَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ جِهَتَانِ، وَهَذَا مِنَ التَّرْكِيبِ الَّذِي زَعَمُوهُ مُنْتَفِيًا، وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ التَّرْكِيبَ، وَهُوَ التَّرْكِيبُ مِنَ الذَّاتِيَّاتِ، وَقَدْ بُيِّنَ فَسَادُ هَذَا مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ:

مِنْهَا: أَنَّ التَّرْكِيبَ المَعْقُولَ هُوَ تَرْكِيبُ الحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالمَعَادِنِ مِنْ أَبْعَاضِهِ وَأَخْلَاطِهِ، وَتَرْكِيبُ المَبْنِيَّاتِ وَالمَلْبُوسَاتِ وَالأَطْعِمَةِ وَالأَشْرِبَةِ مِنْ أَبْعَاضِهَا وَأَخْلَاطِهَا.

وَأَمَّا تَرْكِيبُ الأَجْسَامِ مِنَ الجَوَاهِرِ المُنْفَرِدَةِ أَوْ مِنَ المَادَّةِ وَالصُّورَةِ فَهَذَا مِمَّا تَنَازَعَ فِيهِ جُمْهُورُ العُقَلَاءِ، وَكَذَلِكَ تَرْكِيبُ الشَّيْءِ مِنَ المَوْجُودِ، وَالمَاهِيَّةُ سَوَاءٌ كَانَ وَاجِبًا أَوْ مُمْكِنًا هُوَ مِمَّا تَنَازَعَ فِيهِ جُمْهُورُ العُقَلَاءِ، وَكَذَلِكَ تَرَكُّبُهُ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ المُشْتَرَكَةِ وَالمُمَيِّزَةِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا: الجِنْسَ، وَالفَصْلَ.

وَأَمَّا اتِّصَافُ الذَّاتِ بِصِفَاتٍ تَقُومُ بِهَا، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَعْرِفُهُ عَامَّةُ العُقَلَاءِ، وَلَكِنْ لَا يُسَمُّونَ هَذَا تَرْكِيبًا، فَمَنْ سَمَّاهُ تَرْكِيبًا لَمْ يَكُنْ نِزَاعُهُ اللَّفْظِيُّ قَادِحًا فِيمَا عُلِمَ بِالأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ وَالعَقْلِيَّةِ.

ثُمَّ هُمْ يَقُولُونَ: المُرَكَّبُ يَفْتَقِرُ إِلَى أَجْزَائِهِ، وَأَجْزَاؤُهُ غَيْرُهُ، وَوَاجِبُ الوُجُودِ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى غَيْرِهِ، وَهَذِهِ كُلُّهَا أَلْفَاظٌ مُجْمَلَةٌ، فَإِنَّ لَفْظَ الِافْتِقَارِ هُنَا لَمْ يَعْنُوا بِهِ افْتِقَارَ المَفْعُولِ إِلَى فَاعِلِهِ، وَلَا المَعْلُولِ إِلَى عِلَّتِهِ الفَاعِلِيَّةِ، فَإِنَّ جُزْءَ الشَّيْءِ لَا يَكُونُ فَاعِلَهُ وَلَا عِلَّتَهُ المُوجِبَةَ لَهُ، بَلْ يُرِيدُونَ بِهِ التَّلَازُمَ وَالِاشْتِرَاطَ، فَإِنَّ وُجُودَ المَجْمُوعِ مُسْتَلْزِمٌ لِوُجُودِ أَجْزَائِهِ، وَهُوَ مَشْرُوطٌ بِذَلِكَ.

وَمِنْهَا: أَنَّ لَفْظَ الجُزْءِ لَيْسَ مُرَادُهُمْ جُزْءًا مُبَايِنًا لِلْجُمْلَةِ، فَإِنَّ جُزْءَ الجُمْلَةِ لَيْسَ مُبَايِنًا لَهَا.

وَمِنْهَا: لَفْظُ الغَيْرِ، فَإِنَّهُ يُرَادُ بِالغَيْرَيْنِ مَا يَجُوزُ مُبَايَنَةُ أَحَدِهِمَا لِصَاحِبِهِ، أَوْ مُفَارَقَتُهُ لَهُ بِزَمَانٍ أَوْ مَكَانٍ أَوْ وُجُودٍ، وَيُرَادُ بِهِمَا مَا يَجُوزُ العِلْمُ بِأَحَدِهِمَا دُونَ الآخَرِ، وَبَعْضُ المَجْمُوعِ وَصِفَةُ المَوْصُوفِ لَا يَجِبُ أَنْ تُفَارِقَهُ وَتُبَايِنَهُ، بَلْ قَدْ يَجُوزُ أَنْ تُبَايِنَهُ وَيَجُوزُ أَنْ لَا تُبَايِنَهُ.

فَصِفَاتُ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ اللَّازِمَةُ لَهُ لَا يَجُوزُ أَنْ تُفَارِقَهُ وَتُبَايِنَهُ، وَحِينَئِذٍ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يُسَمِّيهَا غَيْرًا لَهُ، وَمَنْ سَمَّاهَا غَيْرًا لَهُ فَذَاتُهُ مُسْتَلْزِمَةٌ لَهَا، لَيْسَتِ الصِّفَاتُ فَاعِلَةً لِلذَّاتِ، وَلَا عِلَّةً مُوجِبَةً لَهَا.

وَلَفْظُ وَاجِبِ الوُجُودِ يُرَادُ بِهِ المَوْجُودُ بِنَفْسِهِ الَّذِي لَا فَاعِلَ لَهُ، وَلَا عِلَّةَ فَاعِلَةً لَهُ، وَذَاتُ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ وَصِفَاتُهُ وَاجِبَةُ الوُجُودِ بِهَذَا الاِعْتِبَارِ، وَيُرَادُ بِهِ مَعَ ذَلِكَ المُسْتَغْنِي عَنْ مَحَلٍّ يَقُومُ بِهِ، وَالذَّاتُ بِهَذَا المَعْنَى وَاجِبَةٌ دُونَ الصِّفَاتِ، وَيُرَادُ بِهِ مَا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِغَيْرِهِ، وَهَذَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ؛ فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَى لَهُ تَعَلُّقٌ بِمَخْلُوقَاتِهِ لَا سِيَّمَا عِنْدَ هَؤُلَاءِ الفَلَاسِفَةِ الدَّهْرِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ مُوجِبٌ بِذَاتِهِ لِلْأَفْلَاكِ مُسْتَلْزِمٌ لَهَا، فَيَجْعَلُونَهُ مَلْزُومًا لِمَفْعُولَاتِهِ، فَكَيْفَ يُنْكِرُونَ أَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ مَلْزُومَةً لِصِفَاتِهِ؟

وَهَؤُلَاءِ المُتَفَلْسِفَةُ اليُونَانِيُّونَ الَّذِينَ يُسَمَّوْنَ المَشَّائِينَ أَتْبَاعُ أَرِسْطُو صَاحِبِ التَّعَالِيمِ: المَنْطِقُ الطَّبِيعِيُّ، وَالرِّيَاضِيُّ، وَالإِلَهِيُّ، يَقُولُونَ: إِنَّ مَوْضُوعَ العِلْمِ الطَّبِيعِيِّ مُتَعَلِّقٌ بِالمَادَّةِ فِي الذِّهْنِ وَالخَارِجِ مِنَ الجِسْمِ وَأَحْكَامِهِ.

وَالثَّانِي الرِّيَاضِيُّ: وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِالمَادَّةِ فِي الخَارِجِ لَا فِي الذِّهْنِ، فَإِنَّهُ لَا يُوجِدُ عَدَدًا وَلَا مِقْدَارًا فِي الخَارِجِ إِلَّا فِي جِسْمٍ فِي الخَارِجِ أَوْ عَرَضٍ مَعْدُودٍ، أَوْ مُقَدَّرٍ مُنْفَصِلٍ، بِخِلَافِ الذِّهْنِ، فَإِنَّهُ يُجَرِّدُ أَعْدَادًا وَمَقَادِيرَ مُجَرَّدَةً عَنِ المَعْدُودَاتِ وَالمُقَدَّرَاتِ.

وَالثَّالِثُ: الَّذِي يُسَمُّونَهُ عِلْمَ مَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ بِاعْتِبَارِ السُّلُوكِ العِلْمِيِّ، وَهُوَ عِلْمُ مَا قَبْلَهَا بِاعْتِبَارِ الوُجُودِ العَيْنِيِّ، وَيُسَمُّونَهُ أَيْضًا العِلْمَ الإِلَهِيَّ، وَمَوْضُوعُهُ عِنْدَهُمُ: المُجَرَّدُ عَنِ المَادَّةِ فِي الذِّهْنِ وَالخَارِجِ، وَهُوَ المَوْجُودُ مِنْ حَيْثُ هُوَ مَوْجُودٌ، وَانْقِسَامُهُ إِلَى جَوْهَرٍ وَعَرَضٍ، وَانْقِسَامُ الجَوْهَرِ إِلَى جِسْمٍ وَغَيْرِ جِسْمٍ، وَانْقِسَامُ الجِسْمِ إِلَى المَادَّةِ وَالصُّورَةِ وَالعُقُولِ وَالنُّفُوسِ.

وَالعِلَّةُ الأُولَى يُسَمِّيهَا أَرِسْطُو وَأَتْبَاعُهُ جَوْهَرًا، وَلَا يُسَمِّيهَا وَاجِبَ الوُجُودِ، وَأَمَّا مُتَأَخِّرُوهُم كَابْنِ سِينَا وَأَتْبَاعِهِ يُسَمُّونَهَا وَاجِبَ الوُجُودِ، وَلَا يُسَمُّونَهَا جَوْهَرًا، وَالكَلَامُ عَلَى هَؤُلَاءِ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، إِذِ المَقْصُودُ هُنَا أَنَّ هَذِهِ الأُمُورَ الَّتِي يَقُولُونَ هِيَ مَوْضُوعُ العِلْمِ الإِلَهِيِّ، وَهِيَ المُجَرَّدَةُ عِنْدَهُمْ عَنِ المَادَّةِ فِي الذِّهْنِ وَالخَارِجِ، هِيَ عِنْدَ التَّحْقِيقِ وُجُودُهَا فِي الأَذْهَانِ، لَا فِي الأَعْيَانِ.

فَإِنَّ الوُجُودَ العَامَّ الكُلِّيَّ لَا يُوجَدُ عَامًّا كُلِّيًّا إِلَّا فِي الأَذْهَانِ لَا فِي الأَعْيَانِ كَمَا أَنَّ الإِنْسَانَ العَامَّ الكُلِّيَّ، وَالحَيَوَانَ العَامَّ الكُلِّيَّ لَا يُوجَدُ عَامًّا كُلِّيًّا إِلَّا فِي الأَذْهَانِ، لَا فِي الأَعْيَانِ.

وَقَدْ بُسِطَ الكَلَامُ عَلَى هَؤُلَاءِ فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ، وَبَيِّنٌ أَنَّ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى بَعْدَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ، أَقْرَبُ إِلَى الحَقِّ فِي الأُمُورِ الإِلَهِيَّةِ مِنْهُم.

وَهَذِهِ الأُمُورُ مَبْسُوطَةٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَلَكِنْ نَبَّهْنَا عَلَيْهَا لِتَعَلُّقِهَا هُنَا بِقَوْلِ هَؤُلَاءِ النَّصَارَى: إِنَّ صِفَاتِ الرَّبِّ الثَّلَاثَ هِيَ جَوْهَرِيَّةٌ دُونَ غَيْرِهَا، وَأَنَّهُمْ إِنْ عَنُوا بِذَلِكَ مَا يَعْنِيهِ هَؤُلَاءِ بِالذَّاتِيَّةِ، فَقَوْلُهُمْ بَاطِلٌ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلٍ بَاطِلٍ.

فَإِنَّ تَفْرِيقَ هَؤُلَاءِ اليُونَانِ فِي الصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ بَيْنَ الذَّاتِيِّ وَالعَرَضِيِّ اللَّازِمِ لِلْمَوْجُودِ، وَالعَرَضِيِّ اللَّازِمِ لِلْمَاهِيَّةِ، وَالعَرَضِيِّ اللَّازِمِ لِلْمَوْصُوفِ - فَرْقٌ بَاطِلٌ، وَقَدْ ذَكَرُوا ثَلَاثَ فُرُوقٍ كُلُّهَا بَاطِلَةٌ، كَمَا تَقَدَّمَ:

الأَوَّلُ: الوَسَطُ.

وَالفَرْقُ الثَّانِي: تَقَدُّمُ الذَّاتِيِّ ذِهْنًا وَوُجُودًا، بِخِلَافِ اللَّازِمِ العَرَضِيِّ.

وَالثَّالِثُ: تَوَقُّفُ الحَقِيقَةِ عَلَى الذَّاتِ.

وَقَدْ تَبَيَّنَ بُطْلَانُ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ.

وَالنَّصَارَى لَيْسَ مُرَادُهُمْ بِالجَوْهَرِيَّةِ مَا يُرِيدُهُ هَؤُلَاءِ بِالذَّاتِيَّةِ، فَلِهَذَا لَمْ نَبْسُطِ الكَلَامَ عَلَيْهِ، بَلْ يَقُولُونَ: إِنَّ الثَّلَاثَةَ جَوَاهِرُ، وَهَؤُلَاءِ المَنْطِقِيُّونَ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ اللَّازِمِ لِلْمَاهِيَّةِ، وَاللَّازِمِ لِوُجُودِهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ فِي الخَارِجِ شَيْئَيْنِ: الوُجُودُ، وَمَاهِيَّةٌ أُخْرَى غَيْرُ الوُجُودِ.

وَالكَلَامُ عَلَى هَذَا كُلِّهِ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَوْ قُدِّرَ أَنَّ صِفَاتِ المَوْصُوفَاتِ اللَّازِمَةَ لَهَا تَنْقَسِمُ إِلَى ذَاتِيٍّ مُقَوِّمٍ، وَعَرَضِيٍّ لَازِمٍ، وَأَنَّ صِفَاتِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ كَذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ تَخْصِيصُ العِلْمِ بِأَنَّهُ ذَاتِيٌّ أَوْلَى مِنَ القُدْرَةِ، فَلَيْسَ ذِكْرُ القَائِمِ بِنَفْسِهِ الحَيِّ العَالِمِ بِأَوْلَى مِنْ ذِكْرِ القَائِمِ بِنَفْسِهِ الحَيِّ القَادِرِ.

وَالنَّصَارَى لَمَّا كَانَتِ الأَقَانِيمُ عِنْدَهُمْ ثَلَاثَةً، وَزَعَمُوا أَنَّ الشَّرْعَ المُنَزَّلَ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ، وَكَانُوا فِي ذَلِكَ مُخَالِفِينَ لِلشَّرْعِ المُنَزَّلِ إِلَيْهِم،

كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ - صَارَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: مَوْجُودٌ حَيٌّ عَالِمٌ، وَطَائِفَةٌ يَقُولُونَ: مَوْجُودٌ عَالِمٌ قَادِرٌ، فَيَجْعَلُونَ القَادِرَ مَكَانَ الحَيِّ، وَيَجْعَلُونَ رُوحَ القُدُسِ هُوَ القُدْرَةَ.

وَهَذَا القَوْلُ وَإِنْ كَانَ أَحْسَنَ فِي المَعْنَى، لَكِنَّ تَفْسِيرَ رُوحِ القُدُسِ بِالقُدْرَةِ فِي غَايَةِ البُعْدِ الَّذِي يَظْهَرُ فَسَادُهُ لِكُلِّ أَحَدٍ.

وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ إِثْبَاتِ أُقْنُومِ الكَلِمَةِ الَّذِي يَقُولُونَ تَارَةً: هِيَ العِلْمُ، وَتَارَةً: هِيَ الحِكْمَةُ، وَيُسَمُّونَهَا تَارَةً: النُّطْقَ كَمَا سَمَّوْهَا فِي كِتَابِهِمْ هَذَا، لِأَنَّ الَّذِي اتَّحَدَ بِالمَسِيحِ عِنْدَهُمْ هُوَ أُقْنُومُ الكَلِمَةِ، فَصَارُوا تَارَةً يَضُمُّونَ إِلَيْهَا الحَيَاةَ، وَتَارَةً يَضُمُّونَ إِلَيْهَا القُدْرَةَ.

وَالأَبُ تَارَةً يَقُولُونَ: هُوَ الوُجُودُ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: القَائِمُ بِنَفْسِهِ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: الذَّاتُ، وَتُسَمَّى القَائِمُ بِنَفْسِهِ بِالسُّرْيَانِيَّةِ: الكِيَانَ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: الجُودَ.

وَكُلُّ هَذَا مِنَ الحَيْرَةِ وَالضَّلَالِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ ثَلَاثَ مَعَانٍ هِيَ المُسْتَحِقَّةَ لِأَنْ تَكُونَ جَوْهَرِيَّةً دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الصِّفَاتِ، سَوَاءٌ فُسِّرَتِ الجَوْهَرِيَّةُ بِأَنَّهَا جَوَاهِرُ، أَوْ بِأَنَّهَا ذَاتِيَّةٌ مُقَوِّمَةٌ أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ.

وَمِنْهَا: قَوْلُهُم: تَجْرِي مَجْرَى أَسْمَاءٍ، فَإِنْ أَرَادُوا بِذَلِكَ أَسْمَاءَ أَعْلَامٍ أَوْ جَامِدَةً، وَسَائِرُهَا صِفَاتٌ، فَاسْمُ الحَيِّ وَالعَالِمِ اسْمٌ مُشْتَقٌّ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى العِلْمِ وَالحَيَاةِ، كَمَا يَدُلُّ القَدِيرُ عَلَى القُدْرَةِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنَّهُ يُسَمَّى بِهَا، فَلِلَّهِ تَعَالَى أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ القَدِيرُ، وَالقُدْرَةُ تَسْتَلْزِمُ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى المَخْلُوقَاتِ مَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ العِلْمُ، وَخَلْقُهُ لِلْمَخْلُوقَاتِ يَدُلُّ عَلَى قُدْرَتِهِ أَبْلَغَ مِنْ دَلَالَتِهِ عَلَى عِلْمِهِ، وَاخْتِصَاصُهُ بِالقُدْرَةِ أَظْهَرُ مِنَ اخْتِصَاصِهِ بِالعِلْمِ، حَتَّى إِنَّ طَائِفَةً مِنَ النُّظَّارِ كَأَبِي الحَسَنِ الأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ يَقُولُ: أَخَصُّ وَصْفِهِ القُدْرَةُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ، فَلَا يُوصَفُ بِذَلِكَ غَيْرُهُ.

وَالجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ قَبْلَهُ يَقُولُ: لَيْسَ فِي الوُجُودِ قَادِرٌ غَيْرُهُ، وَلَا لِغَيْرِهِ قُدْرَةٌ، وَالأَشْعَرِيُّ وَإِنْ أَثْبَتَ لِلْمَخْلُوقِ قُدْرَةً، لَكِنْ يُثْبِتُ قُدْرَةً لَا تُؤَثِّرُ فِي المَقْدُورِ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ العُقَلَاءِ: إِنَّ أَخَصَّ وَصْفِهِ الحَيَاةُ وَالعِلْمُ، وَلَا إِنَّ غَيْرَهُ لَيْسَ بِحَيٍّ وَلَا عَالِمٍ، فَكَانَ جَعْلُ القَدِيرِ اسْمًا وَغَيْرِهِ صِفَةً - إِنْ كَانَ الفَرْقُ حَقًّا - أَوْلَى مِنَ العَكْسِ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الفَرْقُ

بَاطِلًا فَإِنَّ أَسْمَاءَهُ تَعَالَى الَّتِي يَعْرِفُهَا النَّاسُ هِيَ أَسْمَاءٌ، وَهِيَ صِفَاتٌ فِي اصْطِلَاحِ أَهْلِ العَرَبِيَّةِ تَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ، هِيَ صِفَاتُهُ القَائِمَةُ بِهِ.

فَالحَيُّ يَدُلُّ عَلَى الحَيَاةِ، وَالعَلِيمُ يَدُلُّ عَلَى العِلْمِ، وَالقَدِيرُ يَدُلُّ عَلَى القُدْرَةِ، هَذَا مَذْهَبُ سَلَفِ الأُمَّةِ وَجَمَاهِيرِ الأُمَمِ، وَمِنَ النَّاسِ فِرْقَةٌ شَاذَّةٌ تَزْعُمُ أَنَّ هَذِهِ الأَسْمَاءَ لَا تَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ كَأَسْمَاءِ الأَعْلَامِ، وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيمَا يُسَمَّى بِهِ سُبْحَانَهُ، وَيُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ كَالحَيِّ وَالعَلِيمِ وَالقَدِيرِ.

فَالجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ كَأَبِي العَبَّاسِ النَّاشِيِّ[1]: إِنَّهَا حَقِيقَةٌ فِي الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ مَجَازٌ فِي المَخْلُوقِ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ عَكْسَ هَؤُلَاءِ مِنَ الجَهْمِيَّةِ وَالمَلَاحِدَةِ وَالمُتَفَلْسِفَةِ: إِنَّهَا مَجَازٌ فِي الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ حَقِيقَةٌ فِي المَخْلُوقِ، وَالأَوَّلُونَ هِيَ عِنْدَهُمْ مُتَوَاطِئَةٌ، وَقَدْ يُسَمُّونَهَا مُشَكِّكَةً لِمَا فِيهَا مِنَ التَّفَاضُلِ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: هِيَ مُشْتَرَكَةٌ اشْتِرَاكًا لَفْظِيًّا.

❁❁❁

(١) هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن عبد الله بن مالك، الناشيء الأنباري المعروف بابن شرشير من الشعراء المجيدين، ويعد في طبقة ابن الرومي والبحتري، وهو الناشيء الأكبر وكان نحويًا عروضيًا متكلمًا، أصله من الأنبار وأقام ببغداد مدة طويلة ثم خرج إلى مصر وأقام بها إلى آخر عمره وله قصيدة على روي واحد وقافية واحدة في أربعة آلاف بيت، وكانت وفاته بمصر سنة ٢٩٣هـ، ذكر ابن كثير أنه معتزلي.
انظر: «البداية والنهاية» (١١/ ١٠١).

فَصْلٌ

إبطال تمثيلهم الصفات بشعاع الشمس

وَأَمَّا قَوْلُهُم: كُلُّ صِفَةٍ مِنْهَا غَيْرُ الأُخْرَى:

فَهَذَا إِنْ أَرَادُوا بِهِ أَنَّ صِفَاتِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ تُبَايِنُهُ وَتَنْفَصِلُ عَنْهُ، وَهُوَ حَقِيقَةُ قَوْلِهِم. وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ: إِنَّهَا مُتَّصِلَةٌ بِهِ، فَهُوَ جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ، وَتَمْثِيلُهُمْ بِشُعَاعِ الشَّمْسِ تَمْثِيلٌ بَاطِلٌ، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ لَا لَهُم.

فَإِنَّ الشُّعَاعَ القَائِمَ بِالهَوَاءِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ وَالشَّجَرِ وَالحِيطَانِ، لَيْسَ هُوَ قَائِمًا بِذَاتِ الشَّمْسِ.

وَالقَائِمُ بِذَاتِ الشَّمْسِ، لَيْسَ هُوَ قَائِمًا بِالهَوَاءِ وَالأَرْضِ.

فَإِنْ قَالُوا: بَلْ مَا يَقُومُ بِهِ مِنَ العِلْمِ يَفِيضُ مِنْهُ عَلَى قُلُوبِ الأَنْبِيَاءِ عُلُومٌ، كَمَا يَفِيضُ الشُّعَاعُ مِنَ الشَّمْسِ.

قِيلَ لَهُم: لَا اخْتِصَاصَ لِلْمَسِيحِ بِهَذَا، بَلْ هَذَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، وَلَيْسَ فِي هَذَا حُلُولُ ذَاتِ الرَّبِّ وَلَا صِفَتِهِ القَائِمَةِ بِهِ بِشَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَلَا أَنَّ العَبْدَ بِمَا حَلَّ فِيهِ مِنَ العِلْمِ وَالإِيمَانِ يَصِيرُ إِلَهًا مَعْبُودًا.

وَإِنْ أَرَادُوا أَنَّهَا قَائِمَةٌ بِهِ، وَتُسَمَّى كُلُّ وَاحِدَةٍ غَيْرَ الأُخْرَى، فَهُنَا نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ، هَلْ تُسَمَّى غَيْرًا أَوْ لَا تُسَمَّى غَيْرًا؟

فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: كُلُّ صِفَةٍ لِلرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ فَهِيَ غَيْرُ الأُخْرَى، وَيَقُولُ: الغَيْرَانِ مَا جَازَ وُجُودُ أَحَدِهِمَا مَعَ عَدَمِ الآخَرِ، أَوْ مَا جَازَ العِلْمُ بِأَحَدِهِمَا مَعَ الجَهْلِ بِالآخَرِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَيْسَتْ هِيَ الأُخْرَى، وَلَا هِيَ هِيَ؛ لِأَنَّ الغَيْرَيْنِ مَا جَازَ وُجُودُ أَحَدِهِمَا مَعَ عَدَمِ الآخَرِ، أَوْ مَا جَازَ مُفَارَقَةُ أَحَدِهِمَا الآخَرَ بِزَمَانٍ أَوْ مَكَانٍ أَوْ وُجُودٍ.

وَالَّذِي عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا إِذَا قِيلَ لَهُم: عِلْمُ اللهِ وَكَلَامُ اللهِ، هَلْ هُوَ غَيْرُ اللهِ أَمْ لَا؟ لَمْ يُطْلِقُوا النَّفْيَ وَلَا الإِثْبَاتَ، فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ: غَيْرُهُ؛ أَوْهَمَ أَنَّهُ مُبَايِنٌ لَهُ.

وَإِذَا قَالَ: لَيْسَ غَيْرَهُ؛ أَوْهَمَ أَنَّهُ هُوَ، بَلْ يَسْتَفْصِلُ السَّائِلَ، فَإِنْ أَرَادَ بِقَوْلِهِ: غَيْرُهُ؛ أَنَّهُ مُبَايِنٌ لَهُ مُنْفَصِلٌ عَنْهُ - فَصِفَاتُ المَوْصُوفِ لَا تَكُونُ مُبَايِنَةً لَهُ مُنْفَصِلَةً عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ مَخْلُوقًا، فَكَيْفَ بِصِفَاتِ الخَالِقِ؟

وَإِنْ أَرَادَ بِالغَيْرِ أَنَّهَا لَيْسَتْ هِيَ هُوَ، فَلَيْسَتِ الصِّفَةُ هِيَ المَوْصُوفَ، فَهِيَ غَيْرُهُ بِهَذَا الاِعْتِبَارِ، وَاسْمُ الرَّبِّ تَعَالَى إِذَا أُطْلِقَ يَتَنَاوَلُ الذَّاتَ المُقَدَّسَةَ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ صِفَاتِ الكَمَالِ، فَيَمْتَنِعُ وُجُودُ الذَّاتِ عَرِيَّةً عَنْ صِفَاتِ الكَمَالِ.

فَاسْمُ اللهِ يَتَنَاوَلُ الذَّاتَ المَوْصُوفَةَ بِصِفَاتِ الكَمَالِ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ لَيْسَتْ زَائِدَةً عَلَى هَذَا المُسَمَّى، بَلْ هِيَ دَاخِلَةٌ فِي المُسَمَّى، وَلَكِنَّهَا زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ المُجَرَّدَةِ الَّتِي تُثْبِتُهَا نُفَاةُ الصِّفَاتِ، فَأُولَئِكَ لَمَّا زَعَمُوا أَنَّهُ ذَاتٌ مُجَرَّدَةٌ قَالَ هَؤُلَاءِ: بَلِ الصِّفَاتُ زَائِدَةٌ عَلَى مَا أَثْبَتُّمُوهُ مِنَ الذَّاتِ.

وَأَمَّا فِي نَفْسِ الأَمْرِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ ذَاتٌ مُجَرَّدَةٌ تَكُونُ الصِّفَاتُ زَائِدَةً عَلَيْهَا، بَلِ الرَّبُّ تَعَالَى هُوَ الذَّاتُ المُقَدَّسَةُ المَوْصُوفَةُ بِصِفَاتِ الكَمَالِ، وَصِفَاتُهُ دَاخِلَةٌ فِي مُسَمَّى أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ ❁ ❁

فَصْلٌ

بيان تناقض قول النصارى في عقيدة إيمانهم

وَقَوْلُهُم: فَالإِلَهُ وَاحِدٌ، خَالِقٌ وَاحِدٌ، رَبٌّ وَاحِدٌ، هُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِهِ، لَكِنْ قَدْ نَقَضُوهُ بِقَوْلِهِمْ فِي عَقِيدَةِ إِيمَانِهِم: (نُؤْمِنُ بِرَبٍّ وَاحِدٍ، يَسُوعَ المَسِيحِ ابْنِ اللهِ الوَحِيدِ، إِلَهٌ حَقٌّ مِنْ إِلَهٍ حَقٍّ، مِنْ جَوْهَرِ أَبِيهِ، مُسَاوٍ الأَبَ فِي الجَوْهَرِ) فَأَثْبَتُوا هُنَا إِلَهَيْنِ، ثُمَّ أَثْبَتُوا رُوحَ القُدُسِ إِلَهًا ثَالِثًا، وَقَالُوا إِنَّهُ مَسْجُودٌ لَهُ، فَصَارُوا يُثْبِتُونَ ثَلَاثَةَ آلِهَةٍ، وَيَقُولُونَ: إِنَّمَا نُثْبِتُ إِلَهًا وَاحِدًا، وَهُوَ تَنَاقُضٌ ظَاهِرٌ، وَجَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ، بَيْنَ الإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ.

وَلِهَذَا قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ العُقَلَاءِ: إِنَّ عَامَّةَ مَقَالَاتِ النَّاسِ يُمْكِنُ تَصَوُّرُهَا إِلَّا مَقَالَةَ النَّصَارَى، وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ وَضَعُوهَا لَمْ يَتَصَوَّرُوا مَا قَالُوا، بَلْ تَكَلَّمُوا بِجَهْلٍ، وَجَمَعُوا فِي كَلَامِهِمْ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُم: لَوِ اجْتَمَعَ عَشَرَةُ نَصَارَى لَتَفَرَّقُوا عَنْ أَحَدَ عَشَرَ قَوْلًا، وَقَالَ آخَرُ: لَوْ سَأَلْتَ بَعْضَ النَّصَارَى وَامْرَأَتَهُ وَابْنَهُ عَنْ تَوْحِيدِهِمْ لَقَالَ الرَّجُلُ قَوْلًا، وَامْرَأَتُهُ قَوْلًا آخَرَ، وَابْنُهُ قَوْلًا ثَالِثًا.

❁❁❁

فَصْلٌ

وَقَوْلُهُم: (لَا يَتَبَعَّضُ وَلَا يَتَجَزَّأُ) مُنَاقِضٌ لِمَا ذَكَرُوهُ فِي أَمَانَتِهِم، وَلِمَا يُمَثِّلُونَهُ بِهِ.

فَإِنَّهُمْ يُمَثِّلُونَهُ بِشُعَاعِ الشَّمْسِ، وَالشُّعَاعُ يَتَبَعَّضُ وَيَتَجَزَّأُ، فَإِنَّ مَا يَقُومُ مِنْهُ بِهَذَا المَوْضِعِ بَعْضٌ وَجُزْءٌ مِنْهُ، وَيُمْكِنُ زَوَالُ بَعْضِهِ مَعَ بَقَاءِ بَعْضٍ، فَإِنَّهُ إِذَا وُضِعَ عَلَى مَطْرَحِ الشُّعَاعِ شَيْءٌ فُصِلَ مَا بَيْنَ جَانِبَيْهِ، وَصَارَ الشُّعَاعُ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمَا عَلَى ذَلِكَ الفَوْقَانِيِّ فَاصِلًا بَيْنَ الشُّعَاعَيْنِ السَّافِلَيْنِ.

يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ الشُّعَاعَ قَائِمٌ بِالأَرْضِ وَالهَوَاءِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا مُتَجَزِّئٌ مُتَبَعِّضٌ، وَمَا قَامَ بِالمُتَبَعِّضِ فَهُوَ مُتَبَعِّضٌ، فَإِنَّ الحَالَّ يَتْبَعُ المَحَلَّ، وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ التَّبَعُّضَ وَالتَّجْزِيءَ فِيمَا قَامَ بِهِ.

وَيَقُولُونَ أَيْضًا: إِنَّهُ اتَّحَدَ بِالمَسِيحِ وَأَنَّهُ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ الأَبِ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّ اللَّاهُوتَ مُنْذُ اتَّحَدَ بِالنَّاسُوتِ لَمْ يُفَارِقْهُ، بَلْ لَمَّا صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ الأَبِ كَانَ الصَّاعِدُ عِنْدَهُمْ هُوَ المَسِيحَ الَّذِي هُوَ نَاسُوتٌ وَلَاهُوتٌ إِلَهٌ تَامٌّ، وَإِنْسَانٌ تَامٌّ، فَهُمْ لَا يَقُولُونَ: إِنَّ الجَالِسَ عَنْ يَمِينِ الأَبِ هُوَ النَّاسُوتُ فَقَط، بَلِ اللَّاهُوتُ المُتَّحِدُ بِالنَّاسُوتِ جَلَسَ عَنْ يَمِينِ اللَّاهُوتِ، فَأَيُّ تَبْعِيضٍ وَتَجْزِئَةٍ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا؟

وَلَيْسَ هَذَا مِنْ كَلَامِ الأَنْبِيَاءِ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ لَهُ مَعْنًى لَا نَفْهَمُهُ، بَلْ هُوَ مِنْ كَلَامِ أَكَابِرِهِمُ الَّذِي وَضَعُوهُ وَجَعَلُوهُ عَقِيدَةَ إِيمَانِهِم، فَإِنْ كَانُوا تَكَلَّمُوا بِمَا لَا يَعْقِلُونَهُ، فَهُمْ جُهَّالٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يُتَّبَعُوا، وَإِنْ كَانُوا يَعْقِلُونَ مَا قَالُوهُ، فَلَا يَعْقِلُ أَحَدٌ مِنْ كَوْنِ اللَّاهُوتِ المُتَّحِدِ بِالنَّاسُوتِ جَلَسَ عَنْ يَمِينِ اللَّاهُوتِ المُجَرَّدِ عَنْ الِاتِّحَادِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا اللَّاهُوتَ المُجَرَّدَ مُنْفَصِلٌ مُبَايِنٌ لِلَّاهُوتِ المُتَّحِدِ، وَلَيْسَ هُوَ مُتَّصِلًا بِهِ، بَلْ غَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ مُمَاسًّا

لَهُ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الَّذِي يُمَاسُّ اللَّاهُوتَ الْمُجَرَّدَ هُوَ النَّاسُوتَ مَعَ اللَّاهُوتِ الْمُتَّحِدِ بِهِ، فَهَذَا حَقِيقَةُ التَّبْعِيضِ وَالتَّجْزِئَةِ مَعَ انْفِصَالِ أَحَدِ الْبَعْضَيْنِ عَنِ الآخَرِ.

وَأَيْضًا فَيُقَالُ لَهُمْ: الْمُتَّحِدُ بِالْمَسِيحِ أَهُوَ ذَاتُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَمْ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ؟ فَإِنْ كَانَ هُوَ الذَّاتَ، فَهُوَ الأَبُ نَفْسُهُ، وَيَكُونُ الْمَسِيحُ هُوَ الأَبَ نَفْسَهُ، وَهَذَا مِمَّا اتَّفَقَ النَّصَارَى عَلَى بُطْلَانِهِ؛ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: هُوَ اللهُ، وَهُوَ ابْنُ اللهِ، كَمَا حَكَى اللهُ عَنْهُم، وَلَا يَقُولُونَ هُوَ الأَبُ وَالِابْنُ، وَالأَبُ عِنْدَهُمْ هُوَ اللهُ، وَهَذَا مِنْ تَنَاقُضِهِم.

وَإِنْ قَالُوا: الْمُتَّحِدُ بِالْمَسِيحِ صِفَةُ الرَّبِّ فَصِفَةُ الرَّبِّ لَا تُفَارِقُهُ، وَلَا يُمْكِنُ اتِّحَادُهَا وَلَا حُلُولُهَا فِي شَيْءٍ دُونَ الذَّاتِ.

وَأَيْضًا فَالصِّفَةُ نَفْسُهَا لَيْسَتْ هِيَ الإِلَهَ الْخَالِقَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، بَلْ هِيَ صِفَتُهُ، وَلَا يَقُولُ عَاقِلٌ: إِنَّ كَلَامَ اللهِ أَوْ عِلْمَ اللهِ أَوْ حَيَاةَ اللهِ، هِيَ رَبُّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ صِفَةُ اللهِ نَفْسُهَا لَمْ يَكُنْ هُوَ اللهَ، وَلَمْ يَكُنْ هُوَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَلَا خَالِقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.

وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ: إِنَّ الْمَسِيحَ رَبُّ الْعَالَمِينَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ خَالِقُ آدَمَ وَمَرْيَمَ، وَإِنْ كَانَ ابْنَ آدَمَ وَمَرْيَمَ، فَإِنَّهُ خَالِقُ ذَلِكَ بِلَاهُوتِهِ، وَهُوَ ابْنُ آدَمَ وَمَرْيَمَ بِنَاسُوتِهِ.

فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ صِفَةُ الرَّبِّ لَمْ تَكُنِ الصِّفَةُ هِيَ الْخَالِقَ، فَكَيْفَ وَالْمَسِيحُ لَيْسَ هُوَ صِفَةَ اللهِ نَفْسَهَا، بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ بِكَلِمَةِ اللهِ، وَسُمِّيَ كَلِمَةَ اللهِ، لِأَنَّ اللهَ كَوَّنَهُ (بِكُن)؟

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤-٣٥].

وَسَمَّاهُ رُوحَهُ، لِأَنَّهُ خَلَقَهُ مِنْ نَفْخِ رُوحِ الْقُدُسِ فِي أُمِّهِ، لَمْ يَخْلُقْهُ كَمَا خَلَقَ غَيْرَهُ مِنْ أَبٍ آدَمِيٍّ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٧].

وَإِنْ قَالُوا: المُتَّحِدُ بِهِ بَعْضُ ذَلِكَ دُونَ بَعْضٍ، فَقَدْ قَالُوا بِالتَّبْعِيضِ وَالتَّجْزِئَةِ، فَهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا بُطْلَانُ مَذْهَبِهِم، وَإِمَّا اعْتِرَافُهُمْ بِالتَّبْعِيضِ وَالتَّجْزِئَةِ مَعَ بُطْلَانِهِ.

وَأَيْضًا فَقَوْلُهُم: (إِلَهٌ حَقٌّ مِنْ إِلَهٍ حَقٍّ، مِنْ جَوْهَرِ أَبِيهِ، مَوْلُودٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مُسَاوٍ لِلْأَبِ فِي الجَوْهَرِ، ابْنُ اللهِ الوَحِيدُ، المَوْلُودُ قَبْلَ كُلِّ الدُّهُورِ).

يُقَالُ لَهُم: هَذَا الِابْنُ المَوْلُودُ المُسَاوِي لِلْأَبِ فِي الجَوْهَرِ، الَّذِي هُوَ إِلَهٌ حَقٌّ مِنْ إِلَهٍ حَقٍّ، هَلْ هُوَ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِغَيْرِهَا؟ أَوْ عَيْنٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا؟

فَإِنْ كَانَ الأَوَّلَ، فَالصِّفَةُ لَيْسَتْ إِلَهًا وَلَا هِيَ خَالِقَةً، وَلَا يُقَالُ لَهَا: مَوْلُودَةٌ مِنَ اللهِ، وَلَا إِنَّهَا مُسَاوِيَةٌ للهِ فِي الجَوْهَرِ، وَلَمْ يُسَمِّ قَطُّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، وَلَا أَتْبَاعِ الأَنْبِيَاءِ صِفَاتِ اللهِ لَا ابْنًا لَهُ وَلَا وَلَدًا، وَلَا قَالَ: إِنَّ صِفَةَ اللهِ تَوَلَّدَتْ مِنْهُ، وَلَا قَالَ عَاقِلٌ: إِنَّ الصِّفَةَ القَدِيمَةَ تَوَلَّدَتْ مِنَ الذَّاتِ القَدِيمَةِ.

وَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ المَسِيحَ إِلَهٌ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لِاتِّحَادِ نَاسُوتِهِ بِهَذَا الِابْنِ المَوْلُودِ قَبْلَ كُلِّ الدُّهُورِ، المُسَاوِي الأَبَ فِي الجَوْهَرِ.

وَهَذَا كُلُّهُ نَعْتُ عَيْنٍ قَائِمَةٍ بِنَفْسِهَا، كَالجَوَاهِرِ القَائِمَةِ بِنَفْسِهَا، لَا نَعْتُ صِفَاتٍ قَائِمَةٍ بِغَيْرِهَا، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ التَّبْعِيضُ وَالتَّجْزِئَةُ لَازِمَةً لِقَوْلِهِم، فَإِنَّ القَوْلَ بِالوِلَادَةِ الطَّبِيعِيَّةِ مُسْتَلْزِمٌ لِأَنْ يَكُونَ خَرَجَ مِنْهُ جُزْءٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَـٰتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ

أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٥-١٩].

وَأَمَّا هَذَا المَعْنَى الَّذِي يُثْبِتُهُ مَنْ يُثْبِتُهُ مِنْ عُلَمَاءِ النَّصَارَى وَيُسَمُّونَهُ وِلَادَةً وَبُنُوَّةً * فَيُسَمُّونَهُ الصِّفَةَ القَدِيمَةَ الأَزَلِيَّةَ القَائِمَةَ بِالمَوْصُوفِ ابْنًا، وَيُسَمُّونَهَا تَارَةً النُّطْقَ، وَتَارَةً الكَلِمَةَ، وَتَارَةً العِلْمَ، وَتَارَةً الحِكْمَةَ، وَيَقُولُونَ: هَذَا مَوْلُودٌ مِنَ اللهِ، وَابْنُ اللهِ.

فَهَذَا لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِم، وَلَا مِنْ سَائِرِ العُقَلَاءِ غَيْرُ هَؤُلَاءِ المُبْتَدِعَةِ مِنَ النَّصَارَى، وَلَا يَفْهَمُ أَحَدٌ مِنَ العُقَلَاءِ مِنِ اسْمِ الوِلَادَةِ وَالبُنُوَّةِ هَذَا المَعْنَى.

وَالأَنْبِيَاءُ لَمْ يُطْلِقُوا لَفْظَ الِابْنِ إِلَّا عَلَى مَخْلُوقٍ، وَهُمْ يَقُولُونَ: هُوَ أَبٌ لِلْمَسِيحِ بِالطَّبْعِ، وَلِغَيْرِهِ بِالوَضْعِ، فَلَا يَعْقِلُ جُمْهُورُ العُقَلَاءِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ هَذَا المَعْنَى إِلَّا البُنُوَّةَ المَعْقُولَةَ بِانْفِصَالِ جُزْءٍ مِنَ الوَالِدِ، وَهَذَا يُنْكِرُهُ مَنْ يُنْكِرُهُ مِنْ عُلَمَائِهِم.

لَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعُوا الأَنْبِيَاءَ، وَلَمْ يَقُولُوا مَا تَعْقِلُهُ العُقَلَاءُ، فَضَلُّوا فِيمَا نَقَلُوهُ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، وَأَضَلُّوا أَتْبَاعَهُمْ فِيمَا قَالُوهُ، وَعَوَامَّهُم، وَإِنْ كَانُوا لَا يَقُولُونَ: إِنَّ وِلَادَةَ اللهِ مِثْلُ وِلَادَةِ الحَيَوَانِ بِانْفِصَالِ شَيْءٍ يُوجَدُ، فَيَقُولُونَ: وِلَادَةٌ لَاهُوتِيَّةٌ بِانْفِصَالِ جُزْءٍ مِنَ اللَّاهُوتِ حَلَّ فِي النَّاسُوتِ، لَا يُعْقَلُ مِنَ الوِلَادَةِ غَيْرُ هَذَا.

وَأَيْضًا فَقَوْلُهُم: (وَنُؤْمِنُ بِرُوحِ القُدُسِ الرَّبِّ المُحْيِي المُنْبَثِقِ مِنَ الأَبِ الَّذِي هُوَ مَعَ الأَبِ مَسْجُودٌ لَهُ، وَمُمَجَّدٌ نَاطِقٌ فِي الأَنْبِيَاءِ، فَقَوْلُهُمُ: المُنْبَثِقُ مِنَ الأَبِ الَّذِي هُوَ مَعَ الأَبِ مَسْجُودٌ لَهُ وَمُمَجَّدٌ، يَمْتَنِعُ أَنْ يُقَالَ هَذَا فِي حَيَاةِ الرَّبِّ القَائِمَةِ بِهِ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مُنْبَثِقَةً مِنْهُ كَسَائِرِ الصِّفَاتِ، إِذْ لَوْ كَانَ القَائِمُ بِنَفْسِهِ مُنْبَثِقًا لَكَانَ عِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ، وَسَائِرُ صِفَاتِهِ مُنْبَثِقَةً مِنْهُ، بَلِ الِانْبِثَاقُ فِي الكَلَامِ أَظْهَرُ مِنْهُ فِي الحَيَاةِ، فَإِنَّ الكَلَامَ يَخْرُجُ مِنَ المُتَكَلِّمِ، وَأَمَّا الحَيَاةُ فَلَا تَخْرُجُ مِنَ الحَيِّ، فَلَوْ كَانَ فِي الصِّفَاتِ مَا هُوَ مُنْبَثِقٌ لَكَانَ الصِّفَةَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الِابْنَ،

وَيَقُولُونَ: هِيَ العِلْمُ وَالكَلَامُ أَوِ النُّطْقُ وَالحِكْمَةُ - أَوْلَى بِأَنْ تَكُونَ مُنْبَثِقَةً مِنَ الحَيَاةِ الَّتِي هِيَ أَبْعَدُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الكَلَامِ.

وَقَدْ قَالُوا أَيْضًا: إِنَّهُ مَعَ الأَبِ مَسْجُودٌ لَهُ وَمُمَجَّدٌ، وَالصِّفَةُ القَائِمَةُ بِالرَّبِّ لَيْسَتْ مَعَهُ مَسْجُودٌ لَهَا، وَقَالُوا: هُوَ نَاطِقٌ فِي الأَنْبِيَاءِ، وَصِفَةُ الرَّبِّ القَائِمَةُ بِهِ لَا تُنْطَقُ فِي الأَنْبِيَاءِ، بَلْ هَذَا كُلُّهُ صِفَةُ رُوحِ القُدُسِ الَّذِي يَجْعَلُهُ اللهُ فِي قُلُوبِ الأَنْبِيَاءِ، أَوْ صِفَةُ مَلَكٍ مِنَ المَلَائِكَةِ كَجِبْرِيلَ، فَإِذَا كَانَ هَذَا مُنْبَثِقًا مِنَ الأَبِ، وَالِانْبِثَاقُ الخُرُوجُ، فَأَيُّ تَبْعِيضٍ وَتَجْزِئَةٍ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا.

وَإِذَا شَبَّهُوهُ بِانْبِثَاقِ الشُّعَاعِ مِنَ الشَّمْسِ كَانَ هَذَا بَاطِلًا مِنْ وُجُوهٍ:

مِنْهَا: أَنَّ الشُّعَاعَ عَرَضٌ قَائِمٌ بِالهَوَاءِ وَالأَرْضِ، وَلَيْسَ جَوْهَرًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ، وَهَذَا عِنْدَهُمْ حَيٌّ مَسْجُودٌ لَهُ، وَهُوَ جَوْهَرٌ.

وَمِنْهَا: أَنَّ ذَلِكَ الشُّعَاعَ القَائِمَ بِالهَوَاءِ وَالأَرْضِ لَيْسَ صِفَةً لِلشَّمْسِ، وَلَا قَائِمًا بِهَا، وَحَيَاةُ الرَّبِّ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِهِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الِانْبِثَاقَ خَصُّوا بِهِ رُوحَ القُدُسِ، وَلَمْ يَقُولُوا فِي الكَلِمَةِ: إِنَّهَا مُنْبَثِقَةٌ.

وَالِانْبِثَاقُ لَوْ كَانَ حَقًّا لَكَانَ بِالكَلِمَةِ أَشْبَهَ مِنْهُ بِالحَيَاةِ، وَكُلَّمَا تَدَبَّرَ العَاقِلُ كَلَامَهُمْ فِي الأَمَانَةِ وَغَيْرِهَا وَجَدَ فِيهِ مِنَ التَّنَاقُضِ وَالفَسَادِ مَا لَا يَخْفَى إِلَّا عَلَى أَجْهَلِ العِبَادِ، وَوَجَدَ فِيهِ مِنْ مُنَاقَضَتِهِ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ، وَسَائِرَ كُتُبِ اللهِ - مَا لَا يَخْفَى مِنْ تَدَبُّرِ هَذَا وَهَذَا.

وَوَجَدَ فِيهِ مِنْ مُنَاقَضَةِ صَرِيحِ المَعْقُولِ مَا لَا يَخْفَى إِلَّا عَلَى مُعَانِدٍ أَوْ جَهُولٍ، فَقَوْلُهُمْ مُتَنَاقِضٌ فِي نَفْسِهِ، مُخَالِفٌ لِصَرِيحِ المَعْقُولِ، وَصَحِيحِ المَنْقُولِ عَنْ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ أَجْمَعِينَ.

فَصْلٌ

نقض قولهم إن اللطائف لا تظهر إلا في الكثائف ولهذا تجسمت كلمة الله الخالقة بعيسى

قَالُوا: وَأَمَّا تَجَسُّمُ كَلِمَةِ اللهِ الخَالِقَةِ بِإِنْسَانٍ مَخْلُوقٍ وَوِلَادَتُهُمَا مَعًا، أَيِ الكَلِمَةِ مَعَ النَّاسُوتِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُخَاطِبِ البَارِي أَحَدًا مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، حَسَبَ مَا جَاءَ فِي هَذَا الكِتَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

وَإِذَا كَانَتِ اللَّطَائِفُ لَا تَظْهَرُ إِلَّا فِي الكَثَائِفِ - رُوحِ القُدُسِ - وَغَيْرِهَا، فَكَلِمَةُ اللهِ الَّتِي بِهَا خُلِقَتِ اللَّطَائِفُ وَالكَثَائِفُ، تَظْهَرُ فِي غَيْرِ كَثِيفٍ كُلًّا.

وَلِذَلِكَ ظَهَرَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، إِذِ الإِنْسَانُ أَجَلُّ مَا خَلَقَهُ اللهُ، وَلِهَذَا خَاطَبَ الخَلْقَ، وَشَاهَدُوا مِنْهُ مَا شَاهَدُوا.

وَالجَوَابُ مِنْ طُرُقٍ:

أَحَدُهَا- أَنَّهُ يُقَالُ: هَذَا الَّذِي ذَكَرُوهُ، وَادَّعَوْا أَنَّهُ تَجَسُّمُ كَلِمَةِ اللهِ الخَالِقَةِ بِإِنْسَانٍ مَخْلُوقٍ، وَوِلَادَتُهُمَا مَعًا، أَيِ الكَلِمَةِ مَعَ النَّاسُوتِ، وَهُوَ الَّذِي يُعَبَّرُ عَنْهُ بِاتِّحَادِ اللَّاهُوتِ بِالنَّاسُوتِ - هُوَ أَمْرٌ مُمْتَنِعٌ فِي صَرِيحِ العَقْلِ، وَمَا عُلِمَ أَنَّهُ مُمْتَنِعٌ فِي صَرِيحِ العَقْلِ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُخْبِرَ بِهِ رَسُولٌ، فَإِنَّ الرُّسُلَ إِنَّمَا تُخْبِرُ بِمَا لَا يُعْلَمُ بِالعَقْلِ أَنَّهُ مُمْتَنِعٌ، فَأَمَّا مَا يُعْلَمُ بِصَرِيحِ العَقْلِ أَنَّهُ مُمْتَنِعٌ، فَالرُّسُلُ مُنَزَّهُونَ عَنِ الإِخْبَارِ عَنْهُ.

الطَّرِيقُ الثَّانِي- أَنَّ الأَخْبَارَ الإِلَهِيَّةَ صَرِيحَةٌ بِأَنَّ المَسِيحَ عَبْدَ اللهِ لَيْسَ بِخَالِقِ العَالَمِ، وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ: هُوَ إِلَهٌ تَامٌّ وَإِنْسَانٌ تَامٌّ.

الطَّرِيقُ الثَّالِثُ- الكَلَامُ فِيمَا ذَكَرُوهُ.

فَأَمَّا الطَّرِيقُ الأَوَّلُ فَمِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا- أَنْ يُقَالَ: المُتَّحِدُ بِالمَسِيحِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ هُوَ الذَّاتَ المُتَّصِفَةَ بِالكَلَامِ أَوِ الكَلَامَ فَقَط، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: المُتَّحِدُ بِهِ، إِمَّا الكَلَامُ مَعَ الذَّاتِ، وَإِمَّا الكَلَامُ بِدُونِ الذَّاتِ، فَإِنْ كَانَ المُتَّحِدُ بِهِ الكَلَامَ مَعَ الذَّاتِ كَانَ المَسِيحُ هُوَ الأَبَ وَهُوَ الِابْنَ وَهُوَ رُوحَ القُدُسِ، وَكَانَ المَسِيحُ هُوَ الأَقَانِيمَ الثَّلَاثَةَ.

وَهَذَا بَاطِلٌ بِاتِّفَاقِ النَّصَارَى، وَسَائِرِ أَهْلِ المِلَلِ، وَبِاتِّفَاقِ الكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ، وَبَاطِلٌ بِصَرِيحِ العَقْلِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَإِنْ كَانَ المُتَّحِدُ بِهِ هُوَ الكَلِمَةَ فَقَطْ فَالكَلِمَةُ صِفَةٌ، وَالصِّفَةُ لَا تَقُومُ بِغَيْرِ مَوْصُوفِهَا، وَالصِّفَةُ لَيْسَتْ إِلَهًا خَالِقًا، وَالمَسِيحُ عِنْدَهُمْ إِلَهٌ خَالِقٌ، فَبَطَلَ قَوْلُهُمْ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ، وَإِنْ قَالُوا: المُتَّحِدُ بِهِ المَوْصُوفُ بِالصِّفَةِ فَالمَوْصُوفُ هُوَ الأَبُ، وَالمَسِيحُ عِنْدَهُمْ لَيْسَ هُوَ الأَبَ، وَإِنْ قَالُوا: الصِّفَةُ فَقَط، فَالصِّفَةُ لَا تُفَارِقُ المَوْصُوفَ وَلَا تَقُومُ بِغَيْرِ المَوْصُوفِ، وَالصِّفَةُ لَا تَخْلُقُ وَلَا تَرْزُقُ، وَلَيْسَتِ الإِلَهَ، وَالصِّفَةُ لَا تَقْعُدُ عَنْ يَمِينِ المَوْصُوفِ، وَالمَسِيحُ عِنْدَهُمْ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ أَبِيهِ.

وَأَمَّا كَوْنُهُ هُوَ الأَبَ فَقَط، وَهُوَ الذَّاتُ المُجَرَّدَةُ عَنِ الصِّفَاتِ، فَهَذَا أَشَدُّ اسْتِحَالَةً، وَلَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يَقُولُ بِهَذَا.

الوَجْهُ الثَّانِي- أَنَّ الذَّاتَ المُتَّحِدَةَ بِنَاسُوتِ المَسِيحِ مَعَ نَاسُوتِ المَسِيحِ إِنْ كَانَتَا بَعْدَ الِاتِّحَادِ ذَاتَيْنِ، وَهُمَا جَوْهَرَانِ كَمَا كَانَا قَبْلَ الِاتِّحَادِ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِاتِّحَادٍ.

وَإِنْ قِيلَ: صَارَا جَوْهَرًا وَاحِدًا، كَمَا يَقُولُ مَنْ يَقُولُ مِنْهُم: إِنَّهُمَا صَارَا كَالنَّارِ مَعَ الحَدِيدَةِ، أَوِ اللَّبَنِ مَعَ المَاءِ، فَهَذَا يَسْتَلْزِمُ اسْتِحَالَةَ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَانْقِلَابَ صِفَةِ كُلٍّ مِنْهُمَا، بَلْ حَقِيقَتُهُ كَمَا اسْتَحَالَ المَاءُ وَاللَّبَنُ إِذَا اخْتَلَطَا، وَالنَّارُ مَعَ الحَدِيدَةِ، وَحِينَئِذٍ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ

اللَّاهُوتُ اسْتَحَالَ وَتَبَدَّلَتْ صِفَتُهُ وَحَقِيقَتُهُ، وَالِاسْتِحَالَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا بِعَدَمِ شَيْءٍ وَوُجُودِ آخَرَ، فَيَلْزَمُ عَدَمُ شَيْءٍ مِنَ القَدِيمِ الوَاجِبِ الوُجُودِ بِنَفْسِهِ. وَمَا وَجَبَ قِدَمُهُ اسْتَحَالَ عَدَمُهُ، وَمَا وَجَبَ وُجُودُهُ امْتَنَعَ عَدَمُهُ، فَإِنَّ القَدِيمَ لَا يَكُونُ قَدِيمًا إِلَّا لِوُجُوبِهِ بِنَفْسِهِ، أَوْ لِكَوْنِهِ لَازِمًا لِلْوَاجِبِ بِنَفْسِهِ، إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَازِمًا لَهُ، بَلْ كَانَ غَيْرَ لَازِمٍ لَهُ لَمْ يَكُنْ قَدِيمًا بِقِدَمِهِ، وَالوَاجِبُ بِنَفْسِهِ يَمْتَنِعُ عَدَمُهُ، وَلَازِمُهُ لَا يَعْدَمُ إِلَّا بِعَدَمِهِ، فَإِنَّهُ يَلْزَمُ مِنَ انْتِفَاءِ اللَّازِمِ انْتِفَاءُ المَلْزُومِ.

الوَجْهُ الثَّالِثُ- أَنْ يُقَالَ: النَّاسُ لَهُمْ فِي كَلَامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عِدَّةُ أَقْوَالٍ، وَقَوْلُ النَّصَارَى بَاطِلٌ عَلَى جَمِيعِ الأَقْوَالِ الَّتِي قَالَهَا النَّاسُ فِي كَلَامِ اللهِ فَثَبَتَ بُطْلَانُهُ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ، وَذَلِكَ أَنَّ كَلَامَ اللهِ سُبْحَانَهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ صِفَةً لَهُ قَائِمًا بِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا لَهُ بَائِنًا عَنْهُ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لَا هَذَا وَلَا هَذَا، بَلْ هُوَ مَا يُوجَدُ فِي النُّفُوسِ، وَهَذَا الثَّالِثُ هُوَ أَبْعَدُ الأَقْوَالِ عَنْ أَقْوَالِ الأَنْبِيَاءِ، وَهُوَ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ مِنَ الفَلَاسِفَةِ وَالصَّابِئَةِ: إِنَّ الرَّبَّ لَا تَقُومُ بِهِ الصِّفَاتُ وَلَيْسَ هُوَ خَالِقًا بِاخْتِيَارِهِ.

وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ: إِنَّهُ لَيْسَ عَالِمًا بِالجُزْئِيَّاتِ، وَلَا قَادِرًا عَلَى تَغْيِيرِ الأَفْلَاكِ، بَلْ كَلَامُهُ عِنْدَهُمْ مَا يَفِيضُ عَلَى النُّفُوسِ، وَرُبَّمَا سَمَّوْهُ كَلَامًا، بِلِسَانِ الحَالِ.

وَهَؤُلَاءِ يَنْفُونَ الكَلَامَ عَنِ اللهِ، وَيَقُولُونَ: لَيْسَ بِمُتَكَلِّمٍ، وَقَدْ يَقُولُونَ: مُتَكَلِّمٌ مَجَازًا، لَكِنْ لَمَّا نَطَقَتْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَطْلَقَهُ مَنْ دَخَلَ فِي المِلَلِ مِنْهُم، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِمِثْلِ هَذَا، وَهَذَا أَحَدُ قَوْلَيِ الجَهْمِيَّةِ.

وَالقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ حَقِيقَةً، لَكِنَّ كَلَامَهُ مَخْلُوقٌ، خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ، وَهُوَ قَوْلُ المُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِم، وَالقَوْلُ الآخَرُ لِلْجَهْمِيَّةِ.

وَعَلَى هَذَيْنِ القَوْلَيْنِ، فَلَيْسَ للهِ كَلَامٌ قَائِمٌ بِهِ حَتَّى يَتَّحِدَ بِالمَسِيحِ، أَوْ يَحُلَّ بِهِ، وَالمَخْلُوقُ عَرَضٌ مِنَ الأَعْرَاضِ لَيْسَ بِإِلَهٍ خَالِقٍ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ: اليَهُودِ، وَالنَّصَارَى، مَنْ يَقُولُ بِهَذَا وَهَذَا.

وَأَمَّا القَوْلُ الأَوَّلُ، وَهُوَ قَوْلُ سَلَفِ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا، وَجُمْهُورِهَا، وَقَوْلُ كَثِيرٍ مِنْ سَلَفِ أَهْلِ الكِتَابِ، وَجُمْهُورِهِم - فَإِمَّا أَنْ يُقَالَ: الكَلَامُ قَدِيمُ النَّوْعِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ، أَوْ قَدِيمُ العَيْنِ، وَإِمَّا أَنْ يُقَالَ: لَيْسَ بِقَدِيمٍ، بَلْ هُوَ حَادِثٌ، وَالأَوَّلُ هُوَ القَوْلُ المَعْرُوفُ عَنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَالحَدِيثِ.

وَأَمَّا القَائِلُونَ بِقِدَمِ العَيْنِ، فَهُمْ يَقُولُونَ: الكَلَامُ لَا يَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ لَا تَحُلُّهُ الحَوَادِثُ، وَمَا كَانَ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا حَادِثًا.

وَلَهُمْ قَوْلَانِ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: القَدِيمُ مَعْنًى وَاحِدٌ، أَوْ خَمْسَةُ مَعَانٍ، وَذَلِكَ المَعْنَى يَكُونُ أَمْرًا وَنَهْيًا وَخَبَرًا، وَهَذِهِ صِفَاتٌ لَهُ لَا أَقْسَامٌ لَهُ، وَإِنْ عُبِّرَ عَنْهُ بِالعَرَبِيَّةِ كَانَ قُرْآنًا، وَإِنْ عُبِّرَ عَنْهُ بِالعِبْرِيَّةِ كَانَ تَوْرَاةً.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هُوَ حُرُوفٌ، أَوْ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ قَدِيمَةُ الأَعْيَانِ.

وَالقَوْلُ الثَّالِثُ: إِنَّهُ مُتَكَلِّمٌ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ كَلَامًا قَائِمًا بِذَاتِهِ، قَالُوا: وَهُوَ حَادِثٌ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ قَدِيمًا، لِامْتِنَاعِ كَوْنِ المَقْدُورِ المُرَادِ قَدِيمًا، وَهَذِهِ الطَّوَائِفُ بَنَوْا أَقْوَالَهُمْ عَلَى أَنَّ مَا لَمْ يَخْلُ عَنِ الحَوَادِثِ، فَهُوَ حَادِثٌ لِامْتِنَاعِ وُجُودِ مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ عِنْدَهُم، وَإِذَا امْتَنَعَ ذَلِكَ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ لِنَوْعِ الحَوَادِثِ ابْتِدَاءٌ، كَمَا لِلْحَادِثِ المُعَيَّنِ ابْتِدَاءٌ، وَمَا لَمْ يَسْبِقِ الحَوَادِثَ كَانَ مَعَهُ أَوْ بَعْدَهُ، فَيَكُونُ حَادِثًا، فَلِهَذَا مَنَعَ هَؤُلَاءِ أَنْ تَكُونَ كَلِمَاتُ اللهِ لَا نِهَايَةَ لَهَا فِي الأَزَلِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَقُولُ بِدَوَامِ وُجُودِهَا فِي الأَبَدِ.

وَأَمَّا القَوْلُ بِأَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ لَا نِهَايَةَ لَهَا مَعَ أَنَّهَا قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ، فَهُوَ القَوْلُ المَأْثُورُ عَنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الحَدِيثِ، وَكَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الكَلَامِ، وَمِنْ الفَلَاسِفَةِ، وَهَذِهِ الأَقْوَالُ قَدْ بُسِطَ الكَلَامُ عَلَيْهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وَالمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ قَوْلَ النَّصَارَى بَاطِلٌ عَلَى كُلِّ قَوْلٍ مِنْ هَذِهِ الأَقْوَالِ الأَرْبَعَةِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ بُطْلَانِهِ عَلَى ذَيْنِكَ القَوْلَيْنِ، فَإِنَّهُ - عَلَى قَوْلِ الجُمْهُورِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ للهِ كَلِمَاتٍ كَثِيرَةً - إِمَّا كَلِمَاتٌ لَا نِهَايَةَ لَهَا وَلَمْ تَزَل، وَإِمَّا كَلِمَاتٌ لَهَا ابْتِدَاءٌ، وَإِذَا كَانَ لَهُ كَلِمَاتٌ كَثِيرَةٌ فَالمَسِيحُ لَيْسَ هُوَ الكَلِمَاتِ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا، وَلَيْسَ هُوَ كَلِمَاتٍ كَثِيرَةً، بَلْ إِنَّمَا خُلِقَ بِكَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَاتِ اللهِ كَمَا فِي الكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ: القُرْآنِ وَالتَّوْرَاةِ، إِنَّهُ يَخْلُقُ الأَشْيَاءَ بِكَلِمَاتِهِ.

قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ بِشَارَةِ مَرْيَمَ بِالمَسِيحِ: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وَقَالَ أَيْضًا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وَقَالَ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤-٣٥].

وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ فِي القُرْآنِ بِخَلْقِهِ لِلْأَشْيَاءِ بِكَلِمَاتِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وَفِي التَّوْرَاةِ: (لِيَكُنْ يَوْمُ الأَحَدِ، لِيَكُنْ كَذَا، لِيَكُنْ كَذَا).

وَأَيْضًا فَعَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ وَعَلَى قَوْلِ مَنْ يَجْعَلُ كَلَامَهُ إِمَّا مَعْنًى وَاحِدًا، وَإِمَّا خَمْسَةَ مَعَانٍ، وَإِمَّا حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ هِيَ شَيْءٌ وَاحِدٌ؛ فَكُلُّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الكَلَامَ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِالمَوْصُوفِ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ جَوْهَرًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ، وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا، وَلَا

لِلْكَلَامِ مَشِيئَةٌ، وَلَا هُوَ جَوْهَرٌ آخَرُ غَيْرُ جَوْهَرِ الْمُتَكَلِّمِ، وَلَا يَتَّحِدُ بِغَيْرِ الْمُتَكَلِّمِ، بَلْ جُمْهُورُهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا يَحُلُّ أَيْضًا بِغَيْرِ الْمُتَكَلِّمِ.

وَمَنْ قَالَ بِالْحُلُولِ مِنْهُمْ فَلَا يَقُولُ: إِنَّ الحَالَّ جَوْهَرٌ، وَلَا إِلَهٌ خَالِقٌ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ مَا قَالَهُ النَّصَارَى بَاطِلٌ عَلَى جَمِيعِ الأَقْوَالِ الَّتِي قَالَهَا النَّاسُ فِي كَلَامِ اللهِ مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ هَذِهِ الأَقْوَالِ خَطَأٌ، وَلَمَّا كَانَ قَوْلُ النَّصَارَى فَسَادُهُ أَظْهَرُ لِلْعُقَلَاءِ كَانَ الخَطَأُ الَّذِي فِي أَكْثَرِ هَذِهِ الأَقْوَالِ قَدْ خَفِيَ عَلَى العُقَلَاءِ الَّذِينَ قَالُوهَا، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِمْ فَسَادُ قَوْلِ النَّصَارَى.

وَأَيْضًا فَالَّذِينَ قَالُوا بِالحُلُولِ مِنَ الغُلَاةِ الَّذِينَ يُكَفِّرُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، كَالَّذِينِ يَقُولُونَ بِحُلُولِهِ فِي بَعْضِ أَهْلِ البَيْتِ أَوْ بَعْضِ المَشَايِخِ، هُمْ وَإِنْ كَانُوا كُفَّارًا شَارَكُوا النَّصَارَى فِي الحُلُولِ، وَلَكِنْ لَمْ يَقُولُوا: إِنَّ الكَلِمَةَ الَّتِي حَلَّتْ هِيَ الإِلَهُ الخَالِقُ، فَيَتَنَاقَضُونَ تَنَاقُضًا ظَاهِرًا، مِثْلَ مَا فِي قَوْلِ النَّصَارَى مِنَ التَّنَاقُضِ البَيِّنِ مَا لَيْسَ فِي قَوْلِ هَؤُلَاءِ، وَإِنْ كَانُوا فِي بَعْضِ الوُجُوهِ قَوْلُهُمْ شَرٌّ مِنْ قَوْلِ النَّصَارَى.

الوَجْهُ الرَّابِعُ- أَنْ يُقَالَ: لَوْ كَانَ المَسِيحُ نَفْسَ كَلِمَةِ اللهِ فَكَلِمَةُ اللهِ لَيْسَتْ هِيَ الإِلَهَ الخَالِقَ لِلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَا هِيَ تَغْفِرُ الذُّنُوبَ، وَتَجْزِي النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم، سَوَاءٌ كَانَتْ كَلِمَتُهُ صِفَةً لَهُ أَوْ مَخْلُوقَةً لَهُ كَسَائِرِ صِفَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، فَإِنَّ عِلْمَ اللهِ وَقُدْرَتَهُ وَحَيَاتَهُ لَمْ تَخْلُقِ العَالَمَ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ: يَا عِلْمَ اللهِ اغْفِرْ لِي، وَيَا قُدْرَةَ اللهِ تُوبِي عَلَيَّ، وَيَا كَلَامَ اللهِ ارْحَمْنِي، وَلَا يَقُولُ: يَا تَوْرَاةَ اللهِ أَوْ يَا إِنْجِيلَهُ أَوْ يَا قُرْآنَهُ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَإِنَّمَا يَدْعُو اللهَ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الكَمَالِ، فَكَيْفَ وَالمَسِيحُ لَيْسَ هُوَ نَفْسَ الكَلَامِ؟

فَإِنَّ المَسِيحَ جَوْهَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، وَالكَلَامُ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِالْمُتَكَلِّمِ، وَلَيْسَ هُوَ نَفْسَ الرَّبِّ الْمُتَكَلِّمِ، فَإِنَّ الرَّبَّ الْمُتَكَلِّمَ هُوَ الَّذِي يُسَمُّونَهُ الأَبَ، وَالمَسِيحُ لَيْسَ هُوَ الأَبَ عِنْدَهُم، بَلِ الِابْنُ، فَضَلُّوا فِي قَوْلِهِمْ مِنْ جِهَاتٍ:

مِنْهَا: جَعْلُ الأَقَانِيمِ ثَلَاثَةً، وَصِفَاتُ اللهِ لَا تَخْتَصُّ بِثَلَاثَةٍ.

وَمِنْهَا: جَعْلُ الصِّفَةِ خَالِقَةً، وَالصِّفَةُ لَا تَخْلُقُ.

وَمِنْهَا: جَعْلُهُمُ الْمَسِيحَ نَفْسَ الْكَلِمَةِ، وَالْمَسِيحُ خُلِقَ بِالْكَلِمَةِ، فَقِيلَ لَهُ كُنْ فَكَانَ كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى تَفْسِيرُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا خُصَّ الْمَسِيحُ بِتَسْمِيَتِهِ كَلِمَةَ اللهِ دُونَ سَائِرِ الْبَشَرِ، لِأَنَّ سَائِرَ الْبَشَرِ خُلِقُوا عَلَى الْوَجْهِ الْمُعْتَادِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، يُخْلَقُ الْوَاحِدُ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ عَلَقَةٍ، ثُمَّ مُضْغَةٍ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، وَخُلِقُوا مِنْ مَاءِ الْأَبَوَيْنِ: الْأَبِ وَالْأُمِّ.

وَالْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ مَاءِ رَجُلٍ، بَلْ لَمَّا نَفَخَ رُوحُ الْقُدُسِ فِي أُمِّهِ حَبِلَتْ بِهِ، وَقَالَ اللهُ: كُنْ فَكَانَ، وَلِهَذَا شَبَّهَهُ اللهُ بِآدَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ وَمَاءٍ، فَصَارَ طِينًا، ثُمَّ أَيْبَسَ الطِّينُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ فَكَانَ، وَهُوَ حِينَ نَفَخَ الرُّوحَ فِيهِ صَارَ بَشَرًا تَامًّا، لَمْ يَحْتَجْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا احْتَاجَ إِلَيْهِ أَوْلَادُهُ بَعْدَ نَفْخِ الرُّوحِ، فَإِنَّ الْجَنِينَ بَعْدَ نَفْخِ الرُّوحِ يَكْمُلُ خَلْقُ جَسَدِهِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، فَيَبْقَى فِي بَطْنِهَا نَحْوَ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ، ثُمَّ يَخْرُجُ طِفْلًا يَرْتَضِعُ، ثُمَّ يَكْبَرُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ خُلِقَ جَسَدُهُ قِيلَ لَهُ كُنْ فَكَانَ بَشَرًا تَامًّا بِنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ، وَلَكِنْ لَمْ يُسَمَّ كَلِمَةَ اللهِ لِأَنَّ جَسَدَهُ خُلِقَ مِنَ التُّرَابِ وَالْمَاءِ وَبَقِيَ مُدَّةً طَوِيلَةً يُقَالُ: أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمْ يَكُنْ خَلْقُ جَسَدِهِ إِبْدَاعِيًّا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، بَلْ خُلِقَ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَخَلْقُ الْحَيَوَانِ مِنَ الطِّينِ مُعْتَادٌ فِي الْجُمْلَةِ.

وَأَمَّا الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَخُلِقَ جَسَدُهُ خَلْقًا إِبْدَاعِيًّا بِنَفْسِ نَفْخِ رُوحِ الْقُدُسِ فِي أُمِّهِ، قِيلَ لَهُ: كُنْ فَكَانَ، فَكَانَ لَهُ مِنَ الِاخْتِصَاصِ بِكَوْنِهِ خُلِقَ بِكَلِمَةِ اللهِ مَا لَمْ يَكُنْ لِغَيْرِهِ مِنَ الْبَشَرِ، وَمِنَ الْأَمْرِ الْمُعْتَادِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّ الِاسْمَ الْعَامَّ إِذَا كَانَ لَهُ نَوْعَانِ خَصَّتْ أَحَدَ النَّوْعَيْنِ بِاسْمٍ، وَأَبْقَتِ الِاسْمَ الْعَامَّ مُخْتَصًّا بِالنَّوْعِ، كَلَفْظِ الدَّابَّةِ وَالْحَيَوَانِ، فَإِنَّهُ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا يَدِبُّ، وَكُلِّ حَيَوَانٍ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ لِلْآدَمِيِّ اسْمٌ يَخُصُّهُ بَقِيَ لَفْظُ الْحَيَوَانِ يَخْتَصُّ بِهِ

البَهِيمُ، وَلَفْظُ الدَّابَّةِ يَخْتَصُّ بِهِ الخَيْلُ أَوْ هِيَ وَالبِغَالُ وَالحَمِيرُ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ لَفْظُ الجَائِزِ وَالمُمْكِنِ، وَذَوِي الأَرْحَامِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ لِغَيْرِ المَسِيحِ مَا يَخْتَصُّ بِهِ أُبْقِيَ اسْمُ الكَلِمَةِ العَامَّةِ مُخْتَصًّا بِالمَسِيحِ.

الطَّرِيقُ الثَّانِي: أَنَّ مَا ذَكَرُوهُ حُجَّةٌ عَلَيْهِم، فَإِنَّ اللهَ إِذَا لَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، فَالمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَجِبُ أَنْ لَا يُكَلِّمَهُ إِلَّا وَحْيًا، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ يُرْسِلَ إِلَيْهِ رَسُولًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١].

يَعُمُّ كُلَّ بَشَرٍ: المَسِيحَ وَغَيْرَهُ.

وَإِذَا امْتَنَعَ ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ فَامْتِنَاعُ أَنْ يَتَّحِدَ بِهِ أَوْ يَحُلَّ فِيهِ أَوْلَى وَأَحْرَى.

فَإِنَّ مَا اتَّحَدَ بِهِ وَحَلَّ فِيهِ كَلِمَةُ اللهِ مِنْ غَيْرِ حِجَابٍ بَيْنَ اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ، وَهُمْ قَدْ سَلَّمُوا أَنَّ اللهَ لَا يُكَلِّمُ بَشَرًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.

الوَجْهُ الثَّالِثُ. أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١].

يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الحِجَابُ حِجَابًا يَحْجُبُ البَشَرَ كَمَا حَجَبَ مُوسَى، فَيَقْتَضِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ كَلَّمَهُم، كَمَا أَنَّهُ كَلَّمَ مُوسَى وَلَمْ يَرَهُ مُوسَى، بَلْ سَأَلَ الرُّؤْيَةَ فَقَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قِيلَ: أَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا. وَعِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ: إِنَّ الإِنْسَانَ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَرَى اللهَ فِي الدُّنْيَا فَيَعِيشَ، وَكَذَلِكَ قَالَ عِيسَى لَمَّا سَأَلُوهُ عَنْ رُؤْيَةِ اللهِ فَقَالَ: إِنَّ

اللهَ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ. [٨] وَهَذَا مَعْرُوفٌ عِنْدَهُم، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الحِجَابُ الحَاجِبُ لِلْبَشَرِ لَيْسَ هُوَ مِنَ البَشَرِ، وَهَذَا يُبْطِلُ قَوْلَ النَّصَارَى فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الرَّبَّ احْتَجَبَ بِحِجَابٍ بَشَرِيٍّ، وَهُوَ الجَسَدُ الَّذِي وَلَدَتْهُ مَرْيَمُ، فَاتَّخَذَهُ حِجَابًا وَكَلَّمَ النَّاسَ مِنْ وَرَائِهِ، وَالقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الحِجَابَ لَيْسَ مِنَ البَشَرِ.

يُبَيِّن هَذَا الوَجْهُ الرَّابِعُ- وَهُوَ أَنَّ ذَلِكَ الجَسَدَ الَّذِي وَلَدَتْهُ مَرْيَمُ هُوَ مِنْ جِنْسِ أَجْسَامِ بَنِي آدَمَ، فَإِنْ جَازَ أَنْ يَتَّحِدَ بِهِ، وَيَحُلَّ فِيهِ، وَيُطِيقَ الجَسَدُ البَشَرِيُّ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا بِمَا يَجْعَلُهُ اللهُ فِيهِ مِنَ القُوَّةِ، جَازَ أَنْ يَتَّحِدَ بِغَيْرِهِ مِنَ الأَجْسَامِ بِمَا يَجْعَلُهُ فِيهَا مِنَ القُوَّةِ، وَإِذَا جَازَ أَنْ يَتَّحِدَ بِهَا جَازَ أَنْ يُكَلِّمَهَا بِغَيْرِ حِجَابٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا بِطَرِيقِ الأَوْلَى وَالأَحْرَى، وَهَذَا خِلَافُ مَا ذَكَرُوهُ وَخِلَافُ القُرْآنِ.

فَتَبَيَّنَ أَنَّ نَفْيَ الأَنْبِيَاءِ لِأَنْ يَرَاهُ المَرْءُ فِي الدُّنْيَا هُوَ نَفْيٌ لِمُمَاسَتِهِ بِبَشَرٍ بِطَرِيقِ الأَوْلَى وَالأَحْرَى، وَالنَّاسُوتُ المَسِيحِيُّ هُوَ بَشَرٌ فَإِذَا لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يَرَى اللهَ فَكَيْفَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَّحِدَ بِهِ، وَيُمَاسَّهُ وَيَصِيرَ هُوَ وَإِيَّاهُ كَاللَّبَنِ وَالمَاءِ، وَالنَّارِ وَالحَدِيدِ، أَوْ كَالرُّوحِ وَالبَدَنِ؟

الوَجْهُ الخَامِسُ- أَنَّهُ مِنَ المَعْلُومِ أَنَّ رُؤْيَةَ الآدَمِيِّ لَهُ أَيْسَرُ مِنَ اتِّحَادِهِ بِهِ، وَحُلُولِهِ فِيهِ، وَأَوْلَى بِالإِمْكَانِ، فَإِذَا كَانَتِ الرُّؤْيَةُ فِي الدُّنْيَا قَدْ نَفَاهَا اللهُ، وَمَنَعَهَا عَلَى أَلْسُنِ رُسُلِهِ: مُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ، فَكَيْفَ يَجُوزُ اتِّصَالُهُ بِالبَشَرِ وَاتِّحَادُهُ بِهِ؟

الوَجْهُ السَّادِسُ- أَنَّهُ لَوْ كَانَ حُلُولُهُ فِي البَشَرِ مِمَّا هُوَ مُمْكِنٌ وَوَاقِعٌ، لَمْ يَكُنْ لِاخْتِصَاصِ وَاحِدٍ مِنَ البَشَرِ بِذَلِكَ دُونَ مَنْ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ مَعْنًى، فَإِنَّ القُدْرَةَ شَامِلَةٌ، وَالمُقْتَضَى - وَهُوَ وُجُودُ اللهِ وَحَاجَةُ الخَلْقِ - مَوْجُودَةٌ، وَلِهَذَا لَمَّا كَانَتِ الرِّسَالَةُ مُمْكِنَةً أَرْسَلَ مِنَ البَشَرِ غَيْرَ وَاحِدٍ، وَلَمَّا كَانَ سَمَاعُ كَلَامِهِ لِلْبَشَرِ مُمْكِنًا سَمِعَ كَلَامَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَرُؤْيَتُهُ فِي الدُّنْيَا بِالأَبْصَارِ لَمْ تَقَعْ لِأَحَدٍ بِاتِّفَاقِ عُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ، لَكِنْ لَهُمْ فِي النَّبِيِّ ﷺ قَوْلَانِ، وَالَّذِي عَلَيْهِ أَكَابِرُ العُلَمَاءِ وَجُمْهُورُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَرَهُ بِعَيْنِهِ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

وَالخُلَّةُ لَمَّا كَانَتْ مُمْكِنَةً اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَاتَّخَذَ مُحَمَّدًا أَيْضًا خَلِيلًا كَمَا فِي الصَّحِيحِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**»(١) وَقَالَ ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ**

---

(١) صحيح.

وقد ورد من حديث ابن عباس، وابن مسعود، وأبي سعيد الخدري، وعبد الله بن الزبير، وأبي المعلي بن لوذان، وجندب بن عبد الله البجلي، وأبي هريرة.

* أما حديث ابن عباس رضي الله عنهما:

فأخرجه البخاري [٤٦٧] وابن أبي عاصم في «السنة» [١٤٦٣] والنسائي في «الكبرى» [٨١٠٢] وأحمد [٢٤٣٢] وأبو يعلى [٢٥٨٤] والطحاوي في «شرح المشكل» (١/ ٤٤١) وابن حبان [٦٨٦٠] والطبراني [١١٩٣٨] والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٧٦) من طريق جرير بن حازم عن يعلى بن حكيم عن عكرمة عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه، عاصبًا رأسه في خرقة، فقعد على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**إنه ليس أحدٌ أمنَّ عليَّ في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذًا من الناس خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن خلَّة الإسلام أفضل، سدوا عني كل خوخة في المسجد، غير خوخةِ أبي بكر**».

وأخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٥) وأحمد في «المسند» [٣٣٨٥] وفي «فضائل الصحابة» [٥٦٦] والبخاري [٣٦٥٦] [٣٦٥٧] [٦٨٣٨] والبيهقي (٦/ ٢٤٦) من طريق أيوب عن عكرمة عن ابن عباس، به، مختصرًا.

* أما حديث ابن مسعود:

فأخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٤٧٣) (١٢/ ٥) وابن سعد (٣/ ١٧٦) ومسلم [٢٣٨٣] وابن أبي عاصم [١٢٢٦] والنسائي «كبرى» [٨١٠٥] وأبو يعلى [٥١٨٠] وأحمد [٣٥٨٠] والطحاوي «شرح المشكل» (١/ ٤٤٢) والبغوي [٣٨٦٧] من طريق الأعمش عن عبد الله بن مُرَّة عن أبي الأحوص عن ابن مسعود، بلفظ: «**إني أبرأ إلى كل خليل من خُلَّته ولو كنت متخذًا خليلًا، لاتخذت أبا بكر خليلًا، وإن صاحبكم خليل الله** عَزَّوَجَلَّ».

وأخرجه مسلم [٢٣٨٣] [٥] من طريق ابن أبي مليكة عن ابن مسعود.

وأخرجه أحمد [٣٦٨٩] وابن أبي شيبة (١١/ ٤٧٣) ومسلم [٢٣٨٣] [٧] وابن ماجه [٩٣] من طريق وكيع حدثنا الأعمش، بالإسناد السابق.

وأخرجه عبد الرزاق [٢٠٣٩٨] وعنه أحمد [٣٨٧٨] عن معمر عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص، به.

=

خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ»[(١)]، يَعْنِي نَفْسَهُ.

الوَجْهُ السَّابِعُ- قَوْلُهُم: وَإِذَا كَانَتِ اللَّطَائِفُ لَا تَظْهَرُ إِلَّا فِي الكَثَائِفِ مِثْلِ الرُّوحِ وَغَيْرِهَا - فَكَلِمَةُ اللهِ الَّتِي بِهَا خُلِقَتِ الكَثَائِفُ تَظْهَرُ فِي غَيْرِ كَثِيفٍ كُلًّا.

فَيُقَالُ لَهُم: ظُهُورُ اللَّطَائِفِ فِي الكَثَائِفِ كَلَامٌ مُجْمَلٌ، فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنَّ رُوحَ الإِنْسَانِ تَظْهَرُ فِي جَسَدِهِ، أَوِ الجِنِّيَّ يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِ المَصْرُوعِ وَنَحْوَ ذَلِكَ - فَلَيْسَ هَذَا مِمَّا نَحْنُ فِيهِ، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى نَفْسَهُ يَحُلُّ فِي البَشَرِ، فَهَذَا مَحَلُّ النِّزَاعِ، فَأَيْنَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ وَأَنْتُمْ لَمْ تَذْكُرُوا إِلَّا مَا يَدُلُّ عَلَى نَقِيضِ ذَلِكَ؟

الوَجْهُ الثَّامِنُ- أَنَّ هَذَا أَمْرٌ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ عَقْلٌ وَلَا نَقْلٌ، وَلَا نَطَقَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ بِأَنَّ اللهَ يَحُلُّ فِي بَشَرٍ، وَلَا ادَّعَى صَادِقٌ قَطُّ حُلُولَ الرَّبِّ فِيهِ، وَإِنَّمَا يَدَّعِي ذَلِكَ الكَذَّابُونَ، كَالمَسِيحِ الدَّجَّالِ الَّذِي يَظْهَرُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَيَدَّعِي الإِلَهِيَّةَ، فَيُنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَسِيحَ الهُدَى، فَيَقْتُلُ مَسِيحُ الهُدَى الَّذِي ادُّعِيَتْ فِيهِ الإِلَهِيَّةُ بِالبَاطِلِ المَسِيحَ الدَّجَّالَ الَّذِي ادَّعَى الإِلَهِيَّةَ بِالبَاطِلِ، وَيُبَيِّنُ أَنَّ البَشَرَ لَا يَحُلُّ فِيهِ رَبُّ العَالَمِينَ.

= وأخرجه أحمد [٣٨٨٠] والترمذي [٣٦٥٥] من طريق عبد الرزاق عن الثوري عن الأعمش به.
وأخرجه الطيالسي [٣١٤] وأحمد [٤١٨٢] ومسلم [٢٣٨٣] والنسائي «كبرى» (٤-٨١) وأبو يعلى [٥٢٤٩] والطحاوي (١/ ٤٤١) والشاشي [٧٢٠] وابن حبان [٦٨٥٦] والطبراني [١٠١٠٧] وفي «الأوسط» [٧٧٧] من طرق عن عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي الأحوص، به.
حديث أبي سعيد - أخرجه أحمد (٣/ ١٨) والبخاري [٤٦٦] ومسلم [٢٣٨٢].
حديث عبد الله بن الزبير أخرجه أحمد (٤/ ٤) والبخاري [٣٦٥٨].
حديث أبي المعلي بن لوذان رواه أحمد (٣/ ٤٧٨) والترمذي [٣٦٥٩].
وحديث جندب رواه مسلم [٥٣٢]، [٢٣].
وحديث أبي هريرة أخرجه الترمذي [٣٦٦١].

(١) راجع الحديث السابق.

وَلِهَذَا لَمَّا أَنْذَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَقَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ المَسِيحَ الدَّجَّالَ حَتَّى نُوحٌ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِهِ»(١).

وَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ ثَلَاثَ دَلَائِلَ ظَاهِرَةٍ تَظْهَرُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ، تُبَيِّنُ كَذِبَهُ:

أَحَدُهَا- قَوْلُهُ: «مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، «ك ف ر» يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ: قَارِئٍ وَغَيْرِ قَارِئٍ»(٢).

الثَّانِي- قَوْلُهُ: «وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يَرَى رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ»(٣) فَبَيَّنَ أَنَّ اللهَ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا بِعَيْنَيْهِ، وَكُلُّ بَشَرٍ فَإِنَّهُ يُرَى فِي الدُّنْيَا بِالعَيْنِ، فَعُلِمَ أَنَّ اللهَ لَا يَتَّحِدُ بِبَشَرٍ.

الثَّالِثُ- قَوْلُهُ: «إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»، وَدَلَائِلُ نَفْيِ الرُّبُوبِيَّةِ عَنْهُ كَثِيرَةٌ.

لَكِنْ لَمَّا كَانَ حُلُولُ اللَّاهُوتِ فِي البَشَرِ وَاتِّخَاذُهُ بِهِ مَذْهَبًا ضَلَّ بِهِ طَوَائِفُ كَثِيرُونَ مِنْ بَنِي آدَمَ النَّصَارَى وَغَيْرُهُم، وَكَانَ المَسِيحُ الدَّجَّالُ يَأْتِي بِخَوَارِقَ عَظِيمَةٍ، وَالنَّصَارَى احْتَجُّوا عَلَى إِلَهِيَّةِ المَسِيحِ بِمِثْلِ ذَلِكَ - ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عَلَامَاتِ كَذِبِهِ أُمُورًا ظَاهِرَةً لَا يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى بَيَانِ مَوَارِدِ النِّزَاعِ الَّتِي ضَلَّ فِيهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الآدَمِيِّينَ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ، بَلْ أَكْثَرَهُم، تُدْهِشُهُمُ الخَوَارِقُ حَتَّى يُصَدِّقُوا صَاحِبَهَا قَبْلَ النَّظَرِ فِي إِمْكَانِ دَعْوَاهُ، وَإِذَا صَدَّقُوهُ صَدَّقُوا النَّصَارَى فِي دَعْوَى إِلَهِيَّةِ المَسِيحِ، وَصَدَّقُوا أَيْضًا مَنِ

---

(١) خرجت أحاديث الدجال في «النهاية في الفتن» مطولة بما يغني هنا عن إعادتها، وهو مطبوع بمعرفة دار البصيرة حماها الله.

(٢) خرجت أحاديث الدجال في «النهاية في الفتن» مطولة بما يغني هنا عن إعادتها، وهو مطبوع بمعرفة دار البصيرة حماها الله.

(٣) راجع المصدر السابق.

ادَّعَى الحُلُولَ وَالاِتِّحَادَ فِي بَعْضِ المَشَايِخِ، أَوْ بَعْضِ أَهْلِ البَيْتِ أَوْ غَيْرِهِمْ مَنْ أَهْلِ الإِفْكِ وَالفُجُورِ.

وَبِهَذَا يَظْهَرُ الجَوَابُ عَمَّا يُورِدُهُ بَعْضُ أَهْلِ الكَلَامِ كَالرَّازِيِّ عَلَى هَذَا الحَدِيثِ حَيْثُ قَالُوا: دَلَائِلُ كَوْنِ الدَّجَّالِ لَيْسَ هُوَ اللهَ - ظَاهِرَةٌ، فَكَيْفَ يَحْتَجُّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ؟ وَهَذَا السُّؤَالُ يَدُلُّ عَلَى جَهْلِ قَائِلِهِ بِمَا يَقَعُ فِيهِ بَنُو آدَمَ مِنَ الضَّلَالِ، وَبِالأَدِلَّةِ البَيِّنَةِ الَّتِي تُبَيِّنُ فَسَادَ الأَقْوَالِ البَاطِلَةِ، وَإِلَّا فَإِذَا كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي عَهْدِ مُوسَى ظَنُّوا أَنَّ العِجْلَ هُوَ إِلَهُ مُوسَى، فَقَالُوا: هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى، وَظَنُّوا أَنَّ مُوسَى نَسِيَهُ.

وَالنَّصَارَى مَعَ كَثْرَتِهِمْ يَقُولُونَ: إِنَّ المَسِيحَ هُوَ اللهُ. وَفِي المُنْتَسِبِينَ إِلَى القِبْلَةِ خَلْقٌ كَثِيرٌ يَقُولُونَ ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ المَشَايِخِ وَأَهْلِ البَيْتِ، حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَكَابِرِ شُيُوخِ المَعْرِفَةِ وَالتَّصَوُّفِ يَجْعَلُونَ هَذَا نِهَايَةَ التَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ المُوَحِّدُ هُوَ المُوَحَّدَ، وَيُنْشِدُونَ:

مَا وَحَّدَ الوَاحِدَ مِنْ وَاحِدٍ ... إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ

تَوْحِيدُ مَنْ يُخْبِرُ عَنْ نَعْتِهِ ... عَارِيَةٌ أَبْطَلَهَا الوَاحِدُ

تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ ... وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لَاحِدُ

فَكَيْفَ يُسْتَبْعَدُ مَعَ إِظْهَارِ الدَّجَّالِ هَذِهِ الخَوَارِقَ العَظِيمَةَ أَنْ يُعْتَقَدَ فِيهِ أَنَّهُ اللهُ، وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا اللهُ، وَقَدِ اعْتُقِدَ ذَلِكَ فِيمَنْ لَمْ يَظْهَرْ فِيهِ مِثْلُ خَوَارِقِهِ مِنَ الكَذَّابِينَ وَفِيمَنْ لَمْ يَقُلْ: أَنَا اللهُ، كَالمَسِيحِ، وَسَائِرِ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

الوَجْهُ التَّاسِعُ- قَوْلُهُم: فَكَلِمَةُ اللهِ الَّتِي بِهَا خُلِقَتِ اللَّطَائِفُ تَظْهَرُ فِي غَيْرِ كَثِيفٍ كُلًّا، فَيُقَالُ لَهُم: كَلِمَةُ اللهِ الَّتِي يَدَّعُونَ ظُهُورَهَا فِي المَسِيحِ، أَهِيَ كَلَامُ اللهِ الَّذِي هُوَ صِفَتُهُ، أَوْ ذَاتُ اللهِ المُتَكَلِّمَةُ أَوْ مَجْمُوعُهَا؟ فَإِنْ قُلْتُمُ: الظَّاهِرُ فِيهِ نَفْسُ الكَلَامِ فَهَذَا يُرَادُ بِهِ شَيْئَانِ:

إِنْ أُرِيدَ بِهِ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ كَلَامَهُ عَلَى المَسِيحِ، كَمَا أَنْزَلَهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ، فَهَذَا حَقٌّ اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَهْلُ الإِيمَانِ، وَنَطَقَ بِهِ القُرْآنُ.

وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ أَنَّ كَلَامَ اللهِ فَارَقَ ذَاتَهُ وَحَلَّ فِي المَسِيحِ أَوْ غَيْرِهِ، فَهُوَ بَاطِلٌ مَعَ أَنَّ هَذَا لَا يَنْفَعُ النَّصَارَى، فَإِنَّ المَسِيحَ عِنْدَهُمْ إِلَهٌ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَهُوَ عِنْدَهُمُ ابْنُ آدَمَ وَخَالِقُ آدَمَ، وَابْنُ مَرْيَمَ وَخَالِقُ مَرْيَمَ، ابْنُهَا بِنَاسُوتِهِ وَخَالِقُهَا بِلَاهُوتِهِ.

وَإِنْ أَرَادُوا بِظُهُورِ الكَلِمَةِ ظُهُورَ ذَاتِ اللهِ أَوْ ظُهُورَ ذَاتِهِ وَكَلَامِهِ فِي الكَثِيفِ الَّذِي هُوَ الإِنْسَانُ، فَهَذَا أَيْضًا يُرَادُ بِهِ ظُهُورُ نُورِهِ فِي قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ الآيَةَ [النور: ٣٥].

وَكَمَا ظَهَرَ اللهُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ وَأَشْرَقَ مِنْ سَاعِيرَ وَاسْتَعْلَنَ مِن جِبَالِ فَارَانَ، وَكَمَا تَجَلَّى لِإِبْرَاهِيمَ، كَمَا ذَكَرَهُ فِي التَّوْرَاةِ، فَهَذَا لَا يَخْتَصُّ بِالمَسِيحِ، بَلْ هُوَ لِغَيْرِهِ كَمَا هُوَ لَهُ.

وَإِنْ أَرَادُوا أَنَّ ذَاتَ الرَّبِّ حَلَّتْ فِي المَسِيحِ، أَوْ فِي غَيْرِهِ فَهَذَا مَحَلُّ النِّزَاعِ، فَأَيْنَ دَلِيلُهُمْ عَلَى إِمْكَانِ ذَلِكَ ثُمَّ وُقُوعِهِ؟ مَعَ أَنَّ جَمَاهِيرَ العُقَلَاءِ مِنْ أَهْلِ المِلَلِ وَغَيْرِهِمْ يَقُولُونَ: هَذَا غَيْرُ وَاقِعٍ، بَلْ هُوَ مُمْتَنِعٌ.

الوَجْهُ العَاشِرُ- قَوْلُهُم: فَكَلِمَةُ اللهِ الَّتِي بِهَا خُلِقَتِ اللَّطَائِفُ تَظْهَرُ فِي غَيْرِ كَثِيفٍ كُلًّا - كَلَامٌ بَاطِلٌ.

فَإِنَّ ظُهُورَ مَا يَظْهَرُ مِنَ الأُمُورِ الإِلَهِيَّةِ إِذَا أَمْكَنَ ظُهُورُهُ فَظُهُورُهُ فِي اللَّطِيفِ أَوْلَى مِنْ ظُهُورِهِ فِي الكَثِيفِ، فَإِنَّ المَلَائِكَةَ تَنْزِلُ بِالوَحْيِ عَلَى الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَتَتَلَقَّى كَلَامَ اللهِ مِنَ اللهِ، وَتَنْزِلُ بِهِ عَلَى الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَيَكُونُ وُصُولُ كَلَامِ اللهِ إِلَى مَلَائِكَةٍ قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَى البَشَرِ وَهُمُ الوَسَائِطُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

وَاللهُ تَعَالَى أَيَّدَ رُسُلَهُ مِنَ البَشَرِ حَتَّى أَطَاقُوا التَّلَقِّيَ عَنِ المَلَائِكَةِ، وَكَانَتِ المَلَائِكَةُ تَأْتِيهِمْ أَحْيَانًا فِي غَيْرِ الصُّورَةِ البَشَرِيَّةِ، وَأَحْيَانًا فِي الصُّورَةِ البَشَرِيَّةِ، فَكَانَ ظُهُورُ الأُمُورِ الإِلَهِيَّةِ بِاللَّطَائِفِ وَوُصُولُهَا إِلَيْهِمْ أَوْلَى مِنْهُ بِالكَثَائِفِ، وَلَوْ جَازَ أَنْ يَتَّحِدَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ بِحَيٍّ مِنَ الأَحْيَاءِ، وَيَحُلَّ فِيهِ، لَكَانَ حُلُولُهُ فِي مَلَكٍ مِنَ المَلَائِكَةِ وَاتِّحَادُهُ بِهِ أَوْلَى مِنْ حُلُولِهِ وَاتِّحَادِهِ بِوَاحِدٍ مِنَ البَشَرِ.

الوَجْهُ الحَادِيَ عَشَرَ- أَنَّ النَّاسُوتَ المَسِيحِيَّ عِنْدَهُمُ الَّذِي اتَّحَدَ بِهِ هُوَ البَدَنُ وَالرُّوحُ مَعًا، فَإِنَّ المَسِيحَ كَانَ لَهُ بَدَنٌ وَرُوحٌ، كَمَا لِسَائِرِ البَشَرِ، وَاتَّحَدَ بِهِ عِنْدَهُمُ اللَّاهُوتُ، فَهُوَ عِنْدَهُمُ اسْمٌ يَقَعُ عَلَى بَدَنٍ وَرُوحٍ آدَمِيَّيْنِ وَعَلَى اللَّاهُوتِ، وَحِينَئِذٍ فَاللَّاهُوتُ عَلَى رَأْيِهِمْ إِنَّمَا اتَّحَدَ فِي لَطِيفٍ وَهُوَ الرُّوحُ، وَكَثِيفٍ وَهُوَ البَدَنُ، لَمْ يَظْهَرْ فِي كَثِيفٍ فَقَط، وَلَوْلَا اللَّطِيفُ الَّذِي كَانَ مَعَ الكَثِيفِ، وَهُوَ الرُّوحُ - لَمْ يَكُنْ لِلْكَثِيفِ فَضِيلَةٌ وَلَا شَرَفٌ.

الوَجْهُ الثَّانِيَ عَشَرَ- أَنَّهُمْ يُشَبِّهُونَ اتِّحَادَ اللَّاهُوتِ بِالنَّاسُوتِ بِاتِّحَادِ الرُّوحِ بِالبَدَنِ، كَمَا شَبَّهُوا هُنَا ظُهُورَهُ فِيهِ بِظُهُورِ الرُّوحِ فِي البَدَنِ، وَحِينَئِذٍ فَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّ مَا يُصِيبُ البَدَنَ مِنَ الآلَامِ تَتَأَلَّمُ بِهِ الرُّوحُ، وَمَا تَتَأَلَّمُ بِهِ الرُّوحُ يَتَأَلَّمُ بِهِ البَدَنُ، فَيَلْزَمُهُمْ أَنْ يَكُونَ النَّاسُوتُ لَمَّا صُلِبَ وَتَأَلَّمَ وَتَوَجَّعَ الوَجَعَ الشَّدِيدَ كَانَ اللَّاهُوتُ أَيْضًا مُتَأَلِّمًا مُتَوَجِّعًا، وَقَدْ خَاطَبْتُ بِهَذَا بَعْضَ النَّصَارَى فَقَالَ لِي: الرُّوحُ بَسِيطَةٌ، أَيْ لَا يَلْحَقُهَا أَلَمٌ، فَقُلْتُ لَهُ: فَمَا تَقُولُ فِي أَرْوَاحِ الكُفَّارِ بَعْدَ المَوْتِ، أَمُنَعَّمَةٌ أَوْ مُعَذَّبَةٌ؟ فَقَالَ: هِيَ فِي العَذَابِ، فَقُلْتُ: فَعُلِمَ أَنَّ الرُّوحَ المُفَارِقَةَ تُنَعَّمُ وَتُعَذَّبُ، فَإِذَا شَبَّهْتُمُ اللَّاهُوتَ فِي النَّاسُوتِ بِالرُّوحِ فِي البَدَنِ لَزِمَ أَنْ تَتَأَلَّمَ إِذَا تَأَلَّمَ النَّاسُوتُ كَمَا تَتَأَلَّمُ الرُّوحُ إِذَا تَأَلَّمَ البَدَنُ، فَاعْتَرَفَ هُوَ وَغَيْرُهُ بِلُزُومِ ذَلِكَ.

الوَجْهُ الثَّالِثَ عَشَرَ- أَنَّ قَوْلَهُم: وَإِذَا كَانَتِ اللَّطَائِفُ لَا تَظْهَرُ إِلَّا فِي الكَثَائِفِ - فَكَلِمَةُ اللهِ لَا تَظْهَرُ إِلَّا فِي كَثِيفٍ كُلًّا.

تَرْكِيبٌ فَاسِدٌ لَا دَلَالَةَ فِيهِ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ إِذَا بَيَّنُوا أَنَّ كُلَّ لَطِيفٍ يَظْهَرُ فِي كَثِيفٍ، وَلَا يَظْهَرُ فِي غَيْرِهِ حَتَّى يُقَالَ: فَلِهَذَا ظَهَرَ اللهُ فِي كَثِيفٍ وَلَمْ يَظْهَرْ فِي لَطِيفٍ، وَإِلَّا فَإِذَا قِيلَ: إِنَّهُ لَا يَحُلُّ لَا فِي لَطِيفٍ، وَلَا كَثِيفٍ، أَوْ قِيلَ إِنَّهُ يَحُلُّ فِيهِمَا - بَطَلَ قَوْلُهُمْ بِوُجُوبِ حُلُولِهِ فِي المَسِيحِ الكَثِيفِ دُونَ اللَّطِيفِ، وَهُمْ لَمْ يُؤَلِّفُوا الحُجَّةَ تَأْلِيفًا مُنْتِجًا، وَلَا دَلُّوا عَلَى مُقَدِّمَاتِهَا بِدَلِيلٍ، فَلَا أَتَوْا بِصُورَةِ الدَّلِيلِ، وَلَا مَادَّتِهِ، بَلْ مَغَالِيطَ لَا تَرُوجُ إِلَّا عَلَى جَاهِلٍ يُقَلِّدُهُم.

وَلَا يَلْزَمُ مِنْ حُلُولِ الرُّوحِ فِي البَدَنِ أَنْ يَحُلَّ كُلُّ شَيْءٍ فِي البَدَنِ، بَلْ هَذِهِ دَعْوَى مُجَرَّدَةٌ، فَأَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ تَظْهَرُ فِي أَبْدَانِهِم، وَلَا تَظْهَرُ فِي أَبْدَانِ البَهَائِمِ، بَلْ وَلَا فِي الجِنِّ، وَالمَلَائِكَةُ تَتَصَوَّرُ فِي صُورَةِ الآدَمِيِّينَ، وَكَذَلِكَ الجِنُّ، وَالإِنْسَانُ لَا يَظْهَرُ فِي غَيْرِ صُورَةِ الإِنْسَانِ، فَأَيُّ دَلِيلٍ مِنْ كَلَامِهِمْ عَلَى أَنَّ الرَّبَّ يَحُلُّ فِي الإِنْسَانِ الكَثِيفِ، وَلَا يَحُلُّ فِي اللَّطِيفِ؟

وَالقَوْمُ شَرَعُوا يَحْتَجُّونَ عَلَى تَجْسِيمِ كَلِمَةِ اللهِ الخَالِقَةِ فَقَالُوا: وَأَمَّا تَجْسِيمُ كَلِمَةِ اللهِ الخَالِقَةِ بِإِنْسَانٍ مَخْلُوقٍ وَوِلَادَتُهَا مَعًا، أَيِ الكَلِمَةِ مَعَ النَّاسُوتِ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَلَيْسَ فِيمَا ذَكَرُوهُ قَطُّ دَلَالَةٌ لَا قَطْعِيَّةٌ وَلَا ظَنِّيَّةٌ عَلَى تَجْسِيمِ كَلِمَةِ اللهِ الخَالِقَةِ وَوِلَادَتِهَا مَعَ النَّاسُوتِ.

الوَجْهُ الرَّابِعَ عَشَرَ- أَنَّهُمْ قَالُوا: وَأَمَّا تَجْسِيمُ كَلِمَةِ اللهِ الخَالِقَةِ، ثُمَّ قَالُوا: فَكَلِمَةُ اللهِ الَّتِي بِهَا خُلِقَتِ اللَّطَائِفُ، فَتَارَةً يَجْعَلُونَهَا خَالِقَةً، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهَا مَخْلُوقًا بِهَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الخَالِقَ لَيْسَ هُوَ المَخْلُوقَ بِهِ، وَالمَخْلُوقَ بِهِ لَيْسَ هُوَ الخَالِقَ، فَإِنْ كَانَتِ الكَلِمَةُ خَالِقَةً، فَهِيَ خَلَقَتِ الأَشْيَاءَ، وَلَمْ تُخْلَقِ الأَشْيَاءُ بِهَا، وَإِنْ كَانَتِ الأَشْيَاءُ خُلِقَتْ بِهَا، فَلَمْ تَخْلُقِ الأَشْيَاءَ، بَلْ خُلِقَتِ الأَشْيَاءُ بِهَا، وَلَوْ قَالُوا: إِنَّ الأَشْيَاءَ خُلِقَتْ بِهَا بِمَعْنَى أَنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ، لَكَانَ هَذَا حَقًّا، لَكِنَّهُمْ يَجْعَلُونَهَا خَالِقَةً، مَعَ قَوْلِهِمْ بِمَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ.

الوَجْهُ الخَامِسَ عَشَرَ- أَنْ يُقَالَ لَهُم: إِذَا كَانَ اللهُ لَمْ يُخَاطِبْ بَشَرًا إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ - فَتَكْلِيمُهُ لِلْبَشَرِ بِالوَحْيِ وَمِنْ

وَرَاءِ حِجَابٍ، كَمَا كَلَّمَ مُوسَى، وَبِإِرْسَالِ مَلَكٍ، كَمَا أَرْسَلَ المَلَائِكَةَ - إِمَّا أَنْ يَكُونَ كَافِيًا فِي حُصُولِ مُرَادِ الرَّبِّ مِنَ الرِّسَالَةِ إِلَى عِبَادِهِ، أَوْ لَيْسَ كَافِيًا، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ حُلُولِهِ نَفْسِهِ فِي بَشَرٍ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كَافِيًا أَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ المَسِيحُ مِثْلَ غَيْرِهِ فَيُوحِيَ اللهُ إِلَيْهِ أَوْ يُرْسِلَ إِلَيْهِ مَلَكًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِ اللهِ مَا يَشَاءُ، أَوْ يُكَلِّمَهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ كَمَا كَلَّمَ مُوسَى، وَحِينَئِذٍ فَلَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى اتِّحَادِهِ بِبَشَرٍ مَخْلُوقٍ، وَإِنْ كَانَ التَّكَلُّمُ لَيْسَ كَافِيًا وَجَبَ أَنْ يَتَّحِدَ بِسَائِرِ الأَنْبِيَاءِ، كَمَا اتَّحَدَ بِالمَسِيحِ فَيَتَّحِدَ بِنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَدَاوُدَ وَغَيْرِهِم، يُبَيِّنُ هَذَا:

الوَجْهُ السَّادِسَ عَشَرَ- وَهُوَ أَنَّهُ مِنَ المَعْلُومِ أَنَّ الأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ المَسِيحِ أَفْضَلُ مِنْ عَوَامِّ النَّصَارَى الَّذِينَ كَانُوا بَعْدَ المَسِيحِ، وَأَفْضَلُ مِنَ اليَهُودِ الَّذِينَ كَذَّبُوا المَسِيحَ فَإِذَا كَانَ الرَّبُّ قَدْ يُفَضِّلُ بِاتِّحَادِهِ فِي المَسِيحِ حَتَّى كَلَّمَ عِبَادَهُ بِنَفْسِهِ، فَيَتَّحِدُ بِالمَسِيحِ مُحْتَجِبًا بِبَدَنِهِ الكَثِيفِ، وَكَلَّمَ بِنَفْسِهِ اليَهُودَ المُكَذِّبِينَ لِلْمَسِيحِ وَعَوَامَّ النَّصَارَى، وَسَائِرَ مَنْ كَلَّمَهُ المَسِيحُ، فَكَانَ أَنْ يُكَلِّمَ مَنْ هُمْ أَفْضَلُ مِنْ هَؤُلَاءِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ بِنَفْسِهِ أَوْلَى وَأَحْرَى، مِثْلَ أَنْ يَتَّحِدَ بِإِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ، فَيُكَلِّمَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَلُوطًا مُحْتَجِبًا بِبَدَنِ الخَلِيلِ، أَوْ يَتَّحِدَ بِيَعْقُوبَ فَيُكَلِّمَ أَوْلَادَهُ أَوْ غَيْرَهُمْ مُحْتَجِبًا بِبَدَنِ يَعْقُوبَ أَوْ يَتَّحِدَ بِمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ فَيُكَلِّمَ هَارُونَ وَيُوشَعَ بْنَ نُونٍ وَغَيْرَهُمَا مُحْتَجِبًا بِبَدَنِ مُوسَى، فَإِذَا كَانَ هُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ، إِمَّا لِامْتِنَاعِ ذَلِكَ، وَإِمَّا لِأَنَّ عِزَّتَهُ وَحِكْمَتَهُ أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ مَعَ عَدَمِ الحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ، عُلِمَ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي المَسِيحِ بِطَرِيقِ الأَوْلَى وَالأَحْرَى.

الوَجْهُ السَّابِعَ عَشَرَ- أَنَّهُ إِذَا أَمْكَنَهُ أَنْ يَتَّحِدَ بِبَشَرٍ فَاتِّحَادُهُ بِمَلَكٍ مِنَ المَلَائِكَةِ أَوْلَى وَأَحْرَى، وَحِينَئِذٍ فَقَدْ كَانَ اتِّحَادُهُ بِجِبْرِيلَ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَى الأَنْبِيَاءِ أَوْلَى مِنَ اتِّحَادِهِ بِبَشَرٍ يُخَاطِبُ اليَهُودَ، وَعَوَامَّ النَّصَارَى.

فَصْلٌ

قَالُوا: وَلِذَلِكَ ظَهَرَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، إِذِ الإِنْسَانُ أَجَلُّ مَا خَلَقَهُ اللهُ، وَلِهَذَا خَاطَبَ الخَلْقَ، وَشَاهَدُوا مِنْهُ مَا شَاهَدُوا.

فَيُقَالُ: إِنِ ادَّعَيْتُمْ ظُهُورَهُ فِي عِيسَى كَمَا ظَهَرَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ، وَكَمَا يَظْهَرُ فِي بُيُوتِهِ الَّتِي أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَذَلِكَ بِظُهُورِ نُورِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَذِكْرِ أَسْمَائِهِ وَعِبَادَتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، مِنْ غَيْرِ حُلُولِ ذَاتِهِ فِي البَشَرِ وَلَا اتِّحَادِهِ بِهِ، فَهَذَا أَمْرٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ المَسِيحِ وَغَيْرِهِ فَلَا اخْتِصَاصَ لِلْمَسِيحِ بِهَذَا، وَهَذَا أَيْضًا قَدْ يُسَمَّى حُلُولًا، وَعِنْدَهُمْ أَنَّ اللهَ يَحُلُّ فِي الصَّالِحِينَ، وَهَذَا مَذْكُورٌ عِنْدَهُمْ فِي بَعْضِ الكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ، كَمَا فِي كُتُبِهِمْ فِي المَزْمُورِ الرَّابِعِ مِنَ الزَّبُورِ، يَقُولُ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مُنَاجَاتِهِ لِرَبِّهِ: وَلْيَفْرَحِ المُتَوَكِّلُونَ عَلَيْكَ إِلَى الأَبَدِ، وَيَبْتَهِجُونَ، وَتَحُلُّ فِيهِمْ وَيَفْتَخِرُونَ. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَحُلُّ فِي الصَّالِحِينَ المَذْكُورِينَ، فَعُلِمَ أَنَّ هَذَا لَا اخْتِصَاصَ لِلْمَسِيحِ بِهِ، وَلَيْسَ المُرَادُ بِهَذَا - بِاتِّفَاقِهِمْ وَاتِّفَاقِ المُسْلِمِينَ - أَنَّ ذَاتَ اللهِ نَفْسِهِ تَتَّحِدُ بِالبَشَرِ، وَيَصِيرُ اللَّاهُوتُ وَالنَّاسُوتُ كَالنَّارِ وَالحَدِيدِ، وَالمَاءِ وَاللَّبَنِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُمَثِّلُونَ بِهِ الِاتِّحَادَ، بَلْ هَذَا يُرَادُ بِهِ حُلُولُ الإِيمَانِ بِهِ وَمَعْرِفَتُهُ، وَمَحَبَّتُهُ وَذِكْرُهُ وَعِبَادَتُهُ، وَنُورُهُ وَهُدَاهُ.

وَقَدْ يُعَبَّرُ عَنْ ذَلِكَ بِحُلُولِ المِثَالِ العِلْمِيِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣].

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧].

فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي قُلُوبِ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلِ الأَرْضِ.

وَمِنْ هَذَا البَابِ مَا يَرْوِيهِ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ**»(١)، فَأَخْبَرَ أَنَّ شَفَتَيْهِ تَتَحَرَّكُ بِهِ أَيْ بِاسْمِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**عَبْدِي مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، فَيَقُولُ العَبْدُ: رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟، فَيَقُولُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ**»(٢).

فَقَالَ: «**لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ**» وَلَمْ يَقُلْ: لَوَجَدْتَنِي إِيَّاهُ، وَهُوَ عِنْدَهُ أَيْ فِي قَلْبِهِ، وَالَّذِي فِي قَلْبِهِ المِثَالُ العِلْمِيُّ.

وَقَالَ تَعَالَى: «**عَبْدِي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، فَيَقُولُ: وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا جَاعَ، فَلَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي**»(٣)، وَلَمْ يَقُلْ: لَوَجَدْتَنِي قَدْ أَكَلْتُهُ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ البُخَارِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**»(٤).

---

(١) حسن. أخرجه أحمد (٢/ ٥٤٠) وابن ماجه [٣٧٩٢] وابن حبان [٨١٥]. والبغوي [١٢٤٢] والحاكم (١/ ٤٩٦) وصححه ووافقه الذهبي.
وعلقه البخاري (١٣/ ٤٩٩) في «التوحيد» ووصله في «خلق أفعال العباد» [٤٣٦].

(٢) أخرجه مسلم [٢٥٦٩] والبخاري في «الأدب المفرد» [٥١٧] وابن حبان [٢٦٩] من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة، به.

(٣) الحديث السابق.

(٤) رواه البخاري [٦٥٠٢] وقد سبق مرارًا.

وَفِي رِوَايَةٍ: «**فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ**»[1].

وَهَذَا الحَدِيثُ قَدْ يَحْتَجُّ بِهِ القَائِلُونَ بِالحُلُولِ العَامِّ أَوْ الِاتِّحَادِ العَامِّ أَوْ وَحْدَةِ الوُجُودِ، وَقَدْ يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ يَقُولُ بِالخَاصِّ مِنْ ذَلِكَ، كَأَشْبَاهِ النَّصَارَى.

وَالحَدِيثُ حُجَّةٌ عَلَى الفَرِيقَيْنِ، فَإِنَّهُ قَالَ: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ**»، فَأَثْبَتَ ثَلَاثَةً: وَلِيًّا لَهُ، وَعَدُوًّا يُعَادِي وَلِيَّهُ، وَمَيَّزَ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ وَلِيِّهِ، وَعَدُوِّ وَلِيِّهِ، فَقَالَ: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ**»، وَلَكِنْ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ وَلِيَّهُ الَّذِي وَالَاهُ فَصَارَ يُحِبُّ مَا يُحِبُّ وَيُبْغِضُ مَا يُبْغِضُ، وَيُوَالِي مَنْ يُوَالِي وَيُعَادِي مَنْ يُعَادِي، فَيَكُونُ الرَّبُّ مُؤْذِنًا بِالحَرْبِ لِمَنْ عَادَاهُ، بِأَنَّهُ مُعَادٍ لله.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ**»، فَفَرَّقَ بَيْنَ العَبْدِ المُتَقَرِّبِ، وَالرَّبِّ المُتَقَرَّبِ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»، فَبَيَّنَ أَنَّهُ يُحِبُّهُ بَعْدَ تَقَرُّبِهِ بِالنَّوَافِلِ وَالفَرَائِضِ.

ثُمَّ قَالَ: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**»، وَعِنْدَ أَهْلِ الحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ العَامِّ أَوِ الوَحْدَةِ: هُوَ صَدْرُهُ وَبَطْنُهُ وَظَهْرُهُ وَرَأْسُهُ وَشَعْرُهُ، وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ، أَوْ فِي كُلِّ شَيْءٍ قَبْلَ التَّقَرُّبِ وَبَعْدَهُ، وَعِنْدَ الخَاصِّ وَأَهْلِ الحُلُولِ صَارَ هُوَ، وَهُوَ كَالنَّارِ وَالحَدِيدِ وَالمَاءِ وَاللَّبَنِ، لَا يَخْتَصُّ بِذَلِكَ آلَةَ الإِدْرَاكِ وَالفِعْلِ.

---

(١) سبق تخريجه وهو جزء من الحديث السابق.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي»، وَعَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ - الرَّبُّ هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَبْطِشُ وَيَمْشِي، وَالرَّسُولُ إِنَّمَا قَالَ: «فَبِي»، ثُمَّ قَالَ: «وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»، فَجَعَلَ العَبْدَ سَائِلًا مُسْتَعِيذًا، وَالرَّبَّ مَسْئُولًا مُسْتَعَاذًا بِهِ، وَهَذَا يُنَاقِضُ الِاتِّحَادَ، وَقَوْلُهُ: «فَبِي يَسْمَعُ» مِثْلُ قَوْلِهِ: «مَا تَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»، يُرِيدُ بِهِ المِثَالَ العِلْمِيَّ.

وَقَوْلُ اللهِ: «فَيَكُونُ اللهُ فِي قَلْبِهِ» أَيْ مَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَهُدَاهُ وَمُوَالَاتُهُ، وَهُوَ المَثَلُ العِلْمِيُّ، فَبِذَاكَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَبْطِشُ وَيَمْشِي.

وَالمَخْلُوقُ إِذَا أَحَبَّ المَخْلُوقَ أَوْ عَظَّمَهُ أَوْ أَطَاعَهُ يُعَبِّرُ عَنْهُ بِمِثْلِ هَذَا، فَيَقُولُ: أَنْتَ فِي قَلْبِي وَفِي فُؤَادِي، وَمَا زِلْتَ بَيْنَ عَيْنَيَّ، وَمِنْهُ قَوْلُ القَائِلِ:

مِثَالُكَ فِي عَيْنِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي ... وَمَثْوَاكَ فِي قَلْبِي فَأَيْنَ تَغِيبُ

وَقَوْلُ الآخَرِ:

وَمِنْ عَجَبِي أَنِّي أَحِنُّ إِلَيْهِمُ ... وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيتُ وَهُمْ مَعِي
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا ... وَيَشْتَاقُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلُعِي

وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ مَعَ عِلْمِ العُقَلَاءِ أَنَّ نَفْسَ المَحْبُوبِ المُعَظَّمِ هُوَ فِي نَفْسِهِ لَيْسَتْ ذَاتَهُ فِي عَيْنِ مُحِبِّهِ وَلَا فِي قَلْبِهِ، وَلَكِنْ قَدْ يَشْتَبِهُ هَذَا بِهَذَا حَتَّى يَظُنَّ الغَالِطُونَ أَنَّ نَفْسَ المَحْبُوبِ المَعْبُودِ فِي ذَاتِ المُحِبِّ العَابِدِ.

وَلِذَلِكَ غَلِطَ بَعْضُ الفَلَاسِفَةِ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ ذَاتَ المَعْلُومِ المَعْقُولِ يَتَّحِدُ بِالعَالِمِ العَاقِلِ، فَجَعَلُوا المَعْقُولَ وَالعَقْلَ وَالعَاقِلَ شَيْئًا وَاحِدًا، وَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ حُلُولِ مِثَالِ المَعْلُومِ، وَبَيْنَ حُلُولِ ذَاتِهِ، وَهَذَا يَكُونُ لِضَعْفِ العَقْلِ وَقُوَّةِ سُلْطَانِ المَحَبَّةِ وَالمَعْرِفَةِ، فَيَغِيبُ الإِنْسَانُ بِمَعْبُودِهِ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَبِمَحْبُوبِهِ عَنْ مَحَبَّتِهِ، وَبِمَشْهُودِهِ عَنْ شَهَادَتِهِ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ،

فَيَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ شُهُودِ العَبْدِ، لَا أَنَّهُ نَفْسَهُ يَعْدَمُ وَيَفْنَى فِي مَنْ لَمْ يَزَلْ فِي شُهُودِهِ، وَمِنْ هَذَا المَقَامِ إِذَا غَلِطَ قَدْ يَقُولُ مِثْلَ مَا يُحْكَى عَن أَبِي يَزِيدَ البَسْطَامِيِّ[1]: سُبْحَانِي، أَوْ مَا فِي الجُبَّةِ إِلَّا اللهُ، وَفِي هَذَا تُذْكَرُ حِكَايَةٌ، وَهُوَ أَنَّ شَخْصًا كَانَ يُحِبُّ آخَرَ فَأَلْقَى المَحْبُوبُ نَفْسَهُ فِي مَاءٍ، فَأَلْقَى المُحِبُّ نَفْسَهُ خَلْفَهُ، فَقَالَ: أَنَا وَقَعْتُ فَلِمَ وَقَعْتَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: غِبْتُ بِكَ عَنِّي، فَظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنِّي، فَهَذَا العَبْدُ المُحِبُّ لَمَّا اسْتَوْلَى عَلَى قَلْبِهِ سُلْطَانُ المَحَبَّةِ صَارَ قَلْبُهُ مُسْتَغْرِقًا فِي مَحْبُوبِهِ، لَا يَشْهَدُ قَلْبُهُ غَيْرَ مَا فِي قَلْبِهِ وَغَابَ عَنْ شُهُودِ نَفْسِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَظَنَّ أَنَّهُ هُوَ نَفْسُ المَحْبُوبِ، وَهَذَا أَهْوَنُ مِنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ذَاتَ المَحْبُوبِ نَفْسُهُ.

فَهَذَا الظَّنُّ لِاتِّحَادِ الذَّاتِ أَوْ لِحُلُولِهَا ظَنٌّ غَالِطٌ وَقَعَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَالَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ المَسِيحَ أَوْ غَيْرَهُ مِنَ البَشَرِ هُوَ اللهُ، أَوْ إِنَّ اللهَ حَالٌّ فِيهِ قَدْ يَكُونُ غَلَطُهُمْ مِنْ هَذَا الجِنْسِ، لَمَّا سَمِعُوا كَلَامًا يَقْتَضِي أَنَّ اللهَ فِي ذَاتِ الشَّخْصِ، وَجَعَلُوا فِعْلَ هَذَا فِعْلَ هَذَا، ظَنُّوا ذَاكَ اتِّحَادَ الذَّاتِ وَحُلُولَهَا.

وَإِنَّمَا المُرَادُ أَنَّ مَعْرِفَةَ اللهِ فِيهِ، وَاتِّحَادَ المَأْمُورِ بِهِ وَالمَنْهِيِّ عَنْهُ وَالمُوَالِي وَالمُعَادِي، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

وَقَوْلِهِ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

---

(١) وهو طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن علي البسطامي الزاهد المشهور، أبو يزيد كان جده مجوسيًا ثم أسلم، أصله من بلدة بسطام بين خراسان والعراق، وقد ولد بها سنة ١٨٨ هـ.
قال الذهبي في «ميزان الاعتدال»: أبو يزيد البسطامي شيخ الصوفية له نبأ عجيب وحال غريب، ومات سنة ٢٦١ هـ في بلدة بسطام وله من العمر ثلاث وستون سنة.
ومن أحسن ما نقل عنه قوله: «إذا نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة».

وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَنَّ الرَّسُولَ هُوَ اللهُ، وَلَا لِأَنَّ نَفْسَهُ حَالٌّ فِي الرَّسُولِ، بَلْ لِأَنَّ الرَّسُولَ يَأْمُرُ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَيَنْهَى عَمَّا يَنْهَى اللهُ عَنْهُ، وَيُحِبُّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَيُبْغِضُ مَا يُبْغِضُهُ اللهُ، وَيُوَالِي أَوْلِيَاءَ اللهِ، وَيُعَادِي أَعْدَاءَ اللهِ.

فَمَنْ بَايَعَهُ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَإِنَّمَا بَايَعَ اللهَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَمَنْ أَطَاعَهُ فَإِنَّمَا أَطَاعَ اللهَ.

وَكَذَلِكَ المَسِيحُ وَسَائِرُ الرُّسُلِ؛ إِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِمَا يَأْمُرُ اللهُ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَمَّا يَنْهَى اللهُ عَنْهُ وَيُوَالُونَ أَوْلِيَاءَ اللهِ، وَيُعَادُونَ أَعْدَاءَ اللهِ، فَمَنْ أَطَاعَهُمْ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ صَدَّقَهُمْ فَقَبِلَ مِنْهُمْ مَا أَخْبَرُوا بِهِ، فَقَدْ قَبِلَ عَنِ اللهِ، وَمَنْ وَالَاهُمْ فَقَدْ وَالَى اللهَ، وَمَنْ عَادَاهُمْ وَحَارَبَهُمْ فَقَدْ عَادَى اللهَ وَحَارَبَ اللهَ، وَمَنْ تَصَوَّرَ هَذِهِ الأُمُورَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ لَفْظَ الحُلُولِ قَدْ يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ مَعْنًى صَحِيحٍ، وَقَدْ يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ مَعْنًى فَاسِدٍ.

وَكَذَلِكَ حُلُولُ كَلَامِهِ فِي القُلُوبِ، وَلِذَلِكَ كَرِهَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ الكَلَامَ فِي لَفْظِ حُلُولِ القُرْآنِ فِي القُلُوبِ، كَمَا قَدْ ذُكِرَ فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ.

وَمِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا أَنَّ الشَّيْءَ لَهُ وُجُودٌ فِي نَفْسِهِ هُوَ، وَلَهُ وُجُودٌ فِي المَعْلُومِ وَالأَذْهَانِ، وَوُجُودٌ فِي اللَّفْظِ وَاللِّسَانِ، وَوُجُودٌ فِي الخَطِّ وَالبَيَانِ، وَوُجُودٌ عَيْنِيٌّ شَخْصِيٌّ، وَعِلْمِيٌّ وَلَفْظِيٌّ، وَرَسْمِيٌّ، وَذَلِكَ كَالشَّمْسِ مَثَلًا فَلَهَا تَحَقُّقٌ فِي نَفْسِهَا، وَهِيَ الشَّمْسُ الَّتِي فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يُتَصَوَّرُ بِالقَلْبِ الشَّمْسُ، ثُمَّ يَنْطِقُ اللِّسَانُ بِلَفْظِ الشَّمْسِ، وَيُكْتَبُ بِالقَلَمِ الشَّمْسُ.

وَالمَقْصُودُ بِالكِتَابَةِ مُطَابَقَةُ اللَّفْظِ، وَباللَّفْظِ مُطَابَقَةُ العِلْمِ، وَبِالعِلْمِ مُطَابَقَةُ المَعْلُومِ، فَإِذَا رَأَى الإِنْسَانُ فِي كِتَابٍ خَطَّ الشَّمْسِ، أَوْ سَمِعَ قَائِلًا يَذْكُرُ قَالَ: هَذِهِ الشَّمْسُ قَدْ جَعَلَهَا اللهُ سِرَاجًا وَهَّاجًا، وَهَذِهِ الشَّمْسُ تَطْلُعُ مِنَ المَشْرِقِ وَتَغْرُبُ فِي المَغْرِبِ، فَهُوَ يُشِيرُ إِلَى مَا سَمِعَهُ مِنَ اللَّفْظِ وَرَآهُ مِنَ الخَطِّ، وَلَيْسَ مُرَادُهُ نَفْسَ اللَّفْظِ وَالخَطِّ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ هُوَ

الشَّمْسَ الَّتِي تَطْلُعُ وَتَغْرُبُ، وَإِنَّمَا مُرَادُهُ مَا يُقْصَدُ بِالخَطِّ وَاللَّفْظِ وَيُرَادُ بِهِمَا، وَهُوَ المَدْلُولُ المُطَابِقُ لَهُمَا، وَكَذَلِكَ قَدْ يُرَى اسْمُ اللهِ مَكْتُوبًا فِي كِتَابٍ، وَمَعَهُ اسْمُ صَنَمٍ، فَيَقُولُ: آمَنْتُ بِهَذَا، وَكَفَرْتُ بِهَذَا، وَمُرَادُهُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِاللهِ كَافِرٌ بِالصَّنَمِ، فَيُشِيرُ إِلَى اسْمِهِ المَكْتُوبِ وَمُرَادِهِ المُسَمَّى بِهَذَا الِاسْمِ، وَكَذَلِكَ إِذَا سَمِعَ مَنْ يَذْكُرُ أَسْمَاءَ اللهِ الحُسْنَى قَالَ: هَذَا رَبُّ العَالَمِينَ، وَمُرَادُهُ: المُسَمَّى بِتِلْكَ الأَسْمَاءِ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: كَانَ نَقْشُ خَاتَمِ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، مُحَمَّدٌ سَطْرٌ، وَرَسُولُ سَطْرٌ، وَاللهُ سَطْرٌ.

وَمُرَادُهُ بِهَذِهِ الأَسْمَاءِ الخَطُّ هَذَا وَهَذَا وَهَذَا، لَا اللَّفْظُ وَلَا المُسَمَّى.

وَمِمَّا يُشْبِهُ هَذَا مَا يُرَى فِي المِرْآةِ أَوِ المَاءِ، مِثْلُ أَنْ يُرَى الشَّمْسُ أَوْ غَيْرُهَا فِي مَاءٍ أَوْ مِرْآةٍ، فَيُشَارُ إِلَى المَرْئِيِّ فَيُقَالُ: هَذَا الشَّمْسُ، وَهَذَا وَجْهِي أَوْ وَجْهُ فُلَانٍ، وَلَيْسَ مُرَادُهُ أَنَّ نَفْسَ الشَّمْسِ أَوْ وَجْهَهُ أَوْ وَجْهَ فُلَانٍ حَلَّ فِي المَاءِ أَوِ المِرْآةِ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ المَقْصُودُ بِتِلْكَ الرُّؤْيَةِ هُوَ الشَّمْسَ وَهُوَ الوَجْهَ - ذَكَرَهُ، ثُمَّ قَدْ يُقَالُ: رَآهُ رُؤْيَةً مُقَيَّدَةً فِي المَاءِ، أَوِ المِرْآةِ، وَقَدْ يُقَالُ: رَآهُ بِوَاسِطَةِ المَاءِ وَالمِرْآةِ، وَقَدْ يُقَالُ: رَأَى مِثَالَهُ وَخَيَالَهُ المُحَاكِيَ لَهُ، وَلَكِنَّ المَقْصُودَ بِالرُّؤْيَةِ هُوَ نَفْسُهُ، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَا فِي القُلُوبِ مِنَ المِثَالِ العِلْمِيِّ المُطَابِقِ لِلْمَعْلُومِ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنَ اللَّفْظِ، وَاللَّفْظُ أَقْرَبُ مِنَ الخَطِّ، فَإِذَا كَانَ قَدْ يُشَارُ إِلَى اللَّفْظِ وَالخَطِّ، وَالمُرَادُ هُوَ نَفْسُهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الخَطُّ وَاللَّفْظُ هُوَ ذَاتَهُ، بَلْ بِهِ ظَهَرَ وَعُرِفَ، فَلَأَنْ يُشَارَ إِلَى مَا فِي القَلْبِ، وَيُرَادَ بِهِ المَعْرُوفُ الَّذِي ظَهَرَ لِلْقَلْبِ وَتَجَلَّى لِلْقَلْبِ، وَصَارَ نُورُهُ فِي القَلْبِ بِطَرِيقِ الأَوْلَى.

وَالعُقَلَاءُ إِنَّمَا تَتَوَجَّهُ قُلُوبُهُمْ إِلَى المَقْصُودِ المُرَادِ دُونَ الوَسَائِلِ، وَيُعَبِّرُونَ بِعِبَارَاتٍ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ لِظُهُورِ مُرَادِهِمْ بِهَا، كَمَا يَقُولُونَ لِمَنْ يَعْرِفُ عِلْمَ غَيْرِهِ، أَوْ لِمَنْ يَأْمُرُ بِأَمْرِهِ، وَيُخْبِرُ بِخَبَرِهِ، هَذَا فُلَانٌ، فَإِذَا كَانَ مَطْلُوبُهُمْ عِلْمَ عَالِمٍ أَوْ طَاعَةَ أَمِيرٍ، فَجَاءَ نَائِبُهُ القَائِمُ

مَقَامَهُ فِي ذَلِكَ، قَالُوا: هَذَا فُلَانٌ، أَيِ الْمَطْلُوبُ مِنْهُ هُوَ مَعَ هَذَا، فَالِاتِّحَادُ الْمَقْصُودُ بِهِمَا يُعَبِّرُونَ عَنْ أَحَدِهِمَا بِلَفْظِ الْآخَرِ.

كَمَا يُقَالُ: عِكْرِمَةُ هُوَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو يُوسُفَ[1] هُوَ أَبُو حَنِيفَةَ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يُذْكَرُ عَنِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: أَنَا وَأَبِي وَاحِدٌ، مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَأَى أَبِي.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِيمَا حَكَاهُ عَنْ رَسُولِهِ: «**عَبْدِي مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، عَبْدِي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي**»، وَيُشْبِهُهُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْكَلَامِ، فَإِنَّهُ تَنْحَلُّ بِهِ إِشْكَالَاتٌ كَثِيرَةٌ، فَإِنَّ هَذَا مَوْجُودٌ فِي كَلَامِ اللهِ وَرُسُلِهِ وَكَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ، فِي عَامَّةِ الطَّوَائِفِ مَعَ ظُهُورِ الْمَعْنَى وَمَعْرِفَةِ الْمُتَكَلِّمِ وَالْمُخَاطَبِ أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ ذَاتَ أَحَدِهِمَا اتَّحَدَتْ بِذَاتِ الْآخَرِ.

بَلْ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ يُطْلَقُ لَفْظُ الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ، وَيُرَادُ بِهِ مَعْنًى صَحِيحٌ، كَمَا يُقَالُ فُلَانٌ وَفُلَانٌ بَيْنَهُمَا اتِّحَادٌ، إِذَا كَانَا مُتَّفِقَيْنِ فِيمَا يُحِبَّانِ وَيُبْغِضَانِ، وَيُوَالِيَانِ وَيُعَادِيَانِ، فَلَمَّا اتَّحَدَ مُرَادُهُمَا وَمَقْصُودُهُمَا صَارَ يُقَالُ هُمَا مُتَّحِدَانِ، وَبَيْنَهُمَا اتِّحَادٌ، وَلَا يَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّ ذَاتَ هَذَا اتَّحَدَتْ بِذَاتِ الْآخَرِ، كَاتِّحَادِ النَّارِ وَالْحَدِيدِ، وَالْمَاءِ وَاللَّبَنِ، أَوِ النَّفْسِ وَالْبَدَنِ، وَكَذَلِكَ لَفْظُ الْحُلُولِ، وَالسُّكْنَى، وَالتَّخَلُّلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا قِيلَ:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَبِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلا

---

(١) **أبو يوسف**: هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، وهو صاحب الإمام أبي حنيفة كان فقيهًا عالمًا حافظًا، وقد سكن بغداد وتولى القضاء بها لثلاثة من الخلفاء المهدي والهادي ثم هارون الرشيد، وكان مولده سنة ١١٣هـ، ومات سنة ١٨٢هـ ببغداد، ومن كلامه المأثور عنه قوله: «من طلب المال بالكيمياء أفلس ومن تتبع غريب الحديث كذب ومن طلب العلم بالكلام تزندق».

وَالْمُتَخَلِّلُ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنْهُ هُوَ مَحَبَّتُهُ لَهُ وَشُعُورُهُ بِهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، لَا نَفْسُ ذَاتِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ الآخَرِ:

سَاكِنٌ فِي الْقَلْبِ يَعْمُرُهُ ... لَسْتُ أَنْسَاهُ فَأَذْكُرُهُ

وَالسَّاكِنُ فِي القَلْبِ هُوَ مِثَالُهُ العِلْمِيُّ وَمَحَبَّتُهُ وَمَعْرِفَتُهُ، فَتَسْكُنُ فِي القَلْبِ مَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ لَا عَيْنُ ذَاتِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ الآخَرِ:

إِذَا سَكَنَ الْغَدِيرُ عَلَى صَفَاءٍ ... وَجُنِّبَ أَنْ يُحَرِّكَهُ النَّسِيمُ

بَدَتْ فِيهِ السَّمَاءُ بِلَا امْتِرَاءٍ ... كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْدُو وَالنُّجُومُ

كَذَاكَ قُلُوبُ أَرْبَابِ التَّجَلِّي ... يُرَى فِي صَفْوِهَا اللهُ العَظِيمُ

وَقَدْ يُقَالُ: فُلَانٌ مَا فِي قَلْبِهِ إِلَّا اللهُ، وَمَا عِنْدَهُ إِلَّا اللهُ، يُرَادُ بِذَلِكَ: إِلَّا ذِكْرُهُ وَمَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَخَشْيَتُهُ وَطَاعَتُهُ، وَمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ، أَيْ لَيْسَ فِي قَلْبِهِ مَا فِي قَلْبِ غَيْرِهِ مِنَ المَخْلُوقِينَ، بَلْ مَا فِي قَلْبِهِ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، وَيُقَالُ: فُلَانٌ مَا عِنْدَهُ إِلَّا فُلَانٌ، إِذَا كَانَ يَلْهَجُ بِذِكْرِهِ، وَيُفَضِّلُهُ عَلَى غَيْرِهِ.

وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ، مَعَ عِلْمِ المُتَكَلِّمِ وَالْمُسْتَمِعِ أَنَّ ذَاتَ فُلَانٍ لَمْ تَحُلَّ فِي هَذَا، فَضْلًا عَنْ أَنْ تَتَّحِدَ بِهِ، وَهُوَ كَمَا يُقَالُ عَنِ المِرْآةِ إِذَا لَمْ تُقَابِلْ إِلَّا الشَّمْسَ: مَا فِيهَا إِلَّا الشَّمْسُ، أَيْ لَمْ يَظْهَرْ فِيهَا غَيْرُ الشَّمْسِ.

وَأَيْضًا فَلَفْظُ الحُلُولِ يُرَادُ بِهِ حُلُولُ ذَاتِ الشَّيْءِ تَارَةً، وَحُلُولُ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَمِثَالِهِ العِلْمِيِّ تَارَةً كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وَعِنْدَهُمْ فِي النُّبُوَّاتِ أَنَّ اللهَ حَلَّ فِي غَيْرِ المَسِيحِ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ أَنَّ ذَاتَ الرَّبِّ حَلَّتْ فِيهِ، بَلْ يُقَالُ فُلَانٌ سَاكِنٌ فِي قَلْبِي وَحَالٌّ فِي قَلْبِي وَهُوَ فِي سِرِّي، وَسُوَيْدَاءِ قَلْبِي، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا حَلَّ فِيهِ مِثَالُهُ العِلْمِيُّ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمَعْلُومٌ أَنَّ المَكَانَ إِذَا خَلَا مِمَّنْ يَعْرِفُ اللهَ وَيَعْبُدُهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ ذِكْرُ اللهِ وَلَا حَلَّتْ فِيهِ عِبَادَتُهُ وَمَعْرِفَتُهُ، فَإِذَا صَارَ فِي المَكَانِ مَنْ يَعْرِفُ اللهَ وَيَعْبُدُهُ وَيَذْكُرُهُ ظَهَرَ فِيهِ ذِكْرُهُ وَالإِيمَانُ

بِهِ وَحَلَّ فِيهِ الإِيمَانُ بِاللهِ وَعِبَادَتُهُ وَذِكْرُهُ، وَهُوَ بَيْتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَيُقَالُ: إِنَّ اللهَ فِيهِ، وَهُوَ حَالٌّ فِيهِ.

كَمَا يُقَالُ: إِنَّ اللهَ فِي قُلُوبِ العَارِفِينَ، وَحَالٌّ فِيهِم، وَالمُرَادُ بِهِ حُلُولُ مَعْرِفَتِهِ وَالإِيمَانِ بِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ شَوَاهِدُ ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ الرَّبُّ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، أَيْ نُورُهُ وَمَعْرِفَتُهُ، وَعُبِّرَ عَنْ هَذَا بِأَنَّهُ حَالٌّ فِيهِمْ وَهُمْ حَالُّونَ فِي المَسْجِدِ - قِيلَ: إِنَّ اللهَ فِي المَسْجِدِ، وَحَالٌّ فِيهِ، بِهَذَا المَعْنَى، كَمَا يُقَالُ: اللهُ فِي قَلْبِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، مَا عِنْدَهُ إِلَّا اللهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ.

وَمِمَّا يَزِيدُ ذَلِكَ إِيضَاحًا مَا يَرَاهُ النَّائِمُ مِنْ بَعْضِ الأَشْخَاصِ فِي مَنَامِهِ، فَيُخَاطِبُهُ وَيَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ وَيُخْبِرُهُ بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ، وَهُوَ يَقُولُ: رَأَيْتُ فُلَانًا فِي مَنَامِي فَقَالَ لِي: كَذَا، وَقُلْتُ لَهُ: كَذَا، وَفَعَلَ كَذَا، وَفَعَلْتُ كَذَا، وَيَذْكُرُ أَنْوَاعًا مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ.

وَقَدْ يَكُونُ فِيهَا عُلُومٌ وَحِكَمٌ وَآدَابٌ يُنْتَفَعُ بِهَا غَايَةَ المَنْفَعَةِ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ الشَّخْصُ الَّذِي رَأَى فِي المَنَامِ حَيًّا، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِأَنَّ ذَاكَ رَآهُ فِي مَنَامِهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا بِأَنَّهُ قَالَ أَوْ فَعَلَ، وَقَدْ يَقُصُّ الرَّائِي عَلَيْهِ رُؤْيَاهُ، وَيَقُولُ لَهُ الرَّائِي: يَا سَيِّدِي رَأَيْتُكَ فِي المَنَامِ فَقُلْتَ لِي: كَذَا، وَأَمَرْتَنِي بِكَذَا، وَنَهَيْتَنِي عَنْ كَذَا، وَالمَرْئِيُّ لَا يَعْرِفُ ذَلِكَ، وَلَا يَشْعُرُ بِهِ، لِأَنَّ المَرْئِيَّ الَّذِي حَلَّ فِي قَلْبِ الرَّائِي هُوَ المِثَالُ العِلْمِيُّ المُطَابِقُ لِلْعَيْنِيِّ، كَمَا يَرَى الرَّائِي فِي المِرْآةِ أَوِ المَاءِ الشَّخْصَ المَوْجُودَ فِي الخَارِجِ، فَهُوَ المَقْصُودُ، وَبَعْضُ المَرْئِيِّينَ فِي المَنَامِ قَدْ يَدْرِي بِأَنَّهُ رُئِيَ فِي المَنَامِ وَيُكَاشِفُ بِذَلِكَ الرَّائِيَ كَمَا قَدْ يُكَاشِفُهُ بِأُمُورٍ أُخْرَى، لَا لِأَنَّهُ نَفْسَهُ حَلَّ فِيهِ.

وَالرُّؤْيَا إِذَا كَانَتْ صَادِقَةً كَانَ ذَلِكَ القَوْلُ وَالعَمَلُ مُنَاسِبًا لِحَالِ المَرْئِيِّ، مِمَّا هُوَ عَادَتُهُ يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ بِنَفْسِهِ، فَمَثَّلَ لِلرَّائِي مِثَالَهُ قَائِلًا لَهُ وَفَاعِلًا؛ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ نَفْسَهُ يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ

فَيَنْتَفِعُ بِذَلِكَ الرَّائِي، كَمَا يُحْكَى لِلْإِنْسَانِ قَوْلُ غَيْرِهِ وَعَمَلُهُ لِيَعْرِفَ بِذَلِكَ نَفْسَ القَوْلِ وَالعَمَلِ المَحْكِيِّ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَشْيَاءِ لَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ أَوْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا بِالمَثَلِ المَضْرُوبِ لَهُ، إِمَّا فِي اليَقَظَةِ وَإِمَّا فِي المَنَامِ، مَعَ العِلْمِ بِأَنَّ عَيْنَ هَذَا لَيْسَ عَيْنَ هَذَا، وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّهُ إِذَا رَأَى شَخْصًا فِي مَنَامِهِ بِأَنَّ ذَاتَهُ نَفْسَهَا حَلَّتْ فِيهِ دَلَّ عَلَى جَهْلِهِ؛ فَإِنَّ المَرْئِيَّ كَثِيرًا مَا يَكُونُ حَيًّا وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِمَنْ رَآهُ ذَلِكَ، لَا رُوحُهُ تَشْعُرُ وَلَا جِسْمُهُ، فَلَا يَتَوَهَّمُ أَنَّ ذَاتَ رُوحِهِ تَمَثَّلَتْ فِي صُورَتِهِ الجِسْمِيَّةِ لِلنَّائِمِ، بَلِ المُمَثَّلُ فِي نَفْسِ الرَّائِي مِثَالٌ مُطَابِقٌ لَهُ وَجِسْمُهُ وَرُوحُهُ حَيْثُ هُمَا.

ثُمَّ الرُّؤْيَا قَدْ تَكُونُ مِنَ اللهِ، فَتَكُونُ حَقًّا، وَقَدْ تَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ، كَمَا ثَبَتَ تَقْسِيمُهَا إِلَى هَذَيْنِ فِي الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، وَالشَّيْطَانُ كَمَا قَدْ يَتَمَثَّلُ فِي المَنَامِ بِصُورَةِ شَخْصٍ فَقَدْ يَتَمَثَّلُ أَيْضًا فِي اليَقَظَةِ بِصُورَةِ شَخْصٍ يَرَاهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، يُضِلُّ بِذَلِكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ، كَمَا يَجْرِي لِكَثِيرٍ مِنْ مُشْرِكِي الهِنْدِ وَغَيْرِهِمْ إِذَا مَاتَ مَيِّتُهُمْ يَرَوْنَهُ قَدْ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَضَى دُيُونًا، وَرَدَّ وَدَائِعَ وَأَخْبَرَهُمْ بِأُمُورٍ عَنْ مَوْتَاهُم، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ تَصَوَّرَ فِي صُورَتِهِ، وَقَدْ يَأْتِيهِمْ فِي صُورَةِ مَنْ يُعَظِّمُونَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَيَقُولُ: أَنَا فُلَانٌ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ.

وَقَدْ يَقُومُ شَيْخٌ مِنَ الشُّيُوخِ، وَيُخْلِفُ مَوْضِعَهُ شَخْصًا فِي صُورَتِهِ يُسَمُّونَهُ رُوحَانِيَّةَ الشَّيْخِ وَرَفِيقَهُ، وَهُوَ جِنِّيٌّ تَصَوَّرَ فِي صُورَتِهِ، وَهَذَا يَقَعُ لِكَثِيرٍ مِنَ الرُّهْبَانِ وَغَيْرِ الرُّهْبَانِ مِنَ المُنْتَسِبِينَ إِلَى الإِسْلَامِ، وَقَدْ يَرَى أَحَدُهُمْ فِي اليَقَظَةِ مَنْ يَقُولُ لَهُ: أَنَا الخَلِيلُ، أَوْ أَنَا مُوسَى، أَوْ أَنَا المَسِيحُ، أَوْ مُحَمَّدٌ، أَوْ أَنَا فُلَانٌ لِبَعْضِ الصَّحَابَةِ، أَوِ الحَوَارِيِّينَ، وَيَرَاهُ طَائِرًا فِي الهَوَاءِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنَ الشَّيَاطِينِ، وَلَا تَكُونُ تِلْكَ الصُّورَةُ مِثْلَ صُورَةِ ذَلِكَ الشَّخْصِ.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي**»(١)، فَرُؤْيَتُهُ فِي المَنَامِ حَقٌّ، وَأَمَّا فِي اليَقَظَةِ فَلَا يُرَى بِالعَيْنِ هُوَ، وَلَا أَحَدٌ مِنَ المَوْتَى، مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَدْ يَرَى فِي اليَقَظَةِ مَنْ يَظُنُّهُ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، إِمَّا عِنْدَ قَبْرِهِ وَإِمَّا عِنْدَ غَيْرِ قَبْرِهِ.

وَقَدْ يَرَى القَبْرَ انْشَقَّ، وَخَرَجَ مِنْهُ صُورَةُ إِنْسَانٍ، فَيَظُنُّ أَنَّ المَيِّتَ نَفْسَهُ خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ، أَوْ أَنَّ رُوحَهُ تَجَسَّدَتْ وَخَرَجَتْ مِنَ القَبْرِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ جِنِّيٌّ تَصَوَّرَ فِي صُورَتِهِ لِيُضِلَّ ذَلِكَ الرَّائِيَ، فَإِنَّ الرُّوحَ لَيْسَتْ مِمَّا تَكُونُ تَحْتَ التُّرَابِ وَيَنْشَقُّ عَنْهَا التُّرَابُ، فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ قَدْ تَتَّصِلُ بِالبَدَنِ، فَلَا يُحْتَاجُ فِي ذَلِكَ إِلَى شَقِّ التُّرَابِ، وَالبَدَنُ لَمْ يَنْشَقَّ عَنْهُ التُّرَابُ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ تَخْيِيلٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَقَدْ جَرَى مِثْلُ هَذَا لِكَثِيرٍ مِنَ المُنْتَسِبِينَ إِلَى المُسْلِمِينَ، وَأَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ.

وَيَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّ هَذَا مِنْ كَرَامَاتِ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، وَيَكُونُ مِنْ إِضْلَالِ الشَّيَاطِينِ، كَمَا قَدْ بُسِطَ الكَلَامُ فِي هَذَا البَابِ فِي غَيْرِ هَذَا الكِتَابِ، مِثْلِ الفُرْقَانِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

❁❁❁

(١) صحيح متواتر: وقد خرجته في «إرواء الظمآن» بطرقه وألفاظه.

فَصْلٌ

وَإِذَا أَرَدْتُمْ بِقَوْلِكُم: ظَهَرَ فِي عِيسَى حُلُولُ ذَاتِهِ وَاتِّحَادُهُ بِالمَسِيحِ أَوْ غَيْرِهِ - فَهَذِهِ دَعْوَى مُجَرَّدَةٌ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ مُتَقَدِّمٍ وَلَا مُتَأَخِّرٍ، وَكَوْنُ الإِنْسَانِ أَجَلَّ مَا خَلَقَهُ اللهُ - لَوْ كَانَ مُنَاسِبًا لِحُلُولِهِ فِيهِ - أَمْرٌ لَا يَخْتَصُّ بِهِ المَسِيحُ، بَلْ قَدْ قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ غَيْرَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَفْضَلُ مِنْهُ مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ، وَهَذَانِ اتَّخَذَهُمَا اللهُ خَلِيلَيْنِ، وَلَيْسَ فَوْقَ الخُلَّةِ مَرْتَبَةٌ، فَلَوْ كَانَ يَحُلُّ فِي أَجَلِّ مَا خَلَقَهُ اللهُ مِنَ الإِنْسَانِ لِكَوْنِهِ أَجَلَّ مَخْلُوقَاتِهِ لَحَلَّ فِي أَجَلِّ هَذَا النَّوْعِ، وَهُوَ الخَلِيلُ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ قَطُّ حُجَّةٌ عَلَى أَنَّ الجَسَدَ المَأْخُوذَ مِن مَرْيَمَ إِذَا لَمْ يَتَّحِدْ بِاللَّاهُوتِ عَلَى أَصْلِهِم - أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الخَلِيلِ وَمُوسَى.

وَإِذَا قَالُوا: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَطِيئَةً، فَيَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا لَمْ يَعْمَلْ خَطِيئَةً، وَمَنْ عَمِلَ خَطِيئَةً وَتَابَ مِنْهَا فَقَدْ يَصِيرُ بِالتَّوْبَةِ أَفْضَلَ مِمَّا كَانَ قَبْلَ الخَطِيئَةِ، وَأَفْضَلَ مِمَّنْ لَمْ يَعْمَلْ تِلْكَ الخَطِيئَةَ، وَالخَلِيلُ وَمُوسَى أَفْضَلُ مِن يَحْيَى الَّذِي يُسَمُّونَهُ يُوحَنَّا المَعْمَدَانِيَّ.

وَأَمَّا قَوْلُهُم: وَلِهَذَا خَاطَبَ الخَلْقَ، فَالَّذِي خَاطَبَ الخَلْقَ هُوَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَإِنَّمَا سَمِعَ النَّاسُ صَوْتَهُ لَمْ يَسْمَعُوا غَيْرَ صَوْتِهِ، وَالجِنِّيُّ إِذَا حَلَّ فِي الإِنْسَانِ وَتَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهِ يَظْهَرُ لِلسَّامِعِينَ أَنَّ هَذَا الصَّوْتَ لَيْسَ هُوَ صَوْتَ الآدَمِيِّ، وَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ يَعْلَمُ الحَاضِرُونَ أَنَّهُ لَيْسَ كَلَامَ الآدَمِيِّ.

وَالمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ يُسْمَعُ مِنْهُ إِلَّا مَا يُسْمَعُ مِنْ مِثْلِهِ مِنَ الرُّسُلِ، وَلَوْ كَانَ المُتَكَلِّمُ عَلَى لِسَانِ النَّاسُوتِ هُوَ جِنِّيًّا أَوْ مَلَكًا لَظَهَرَ ذَلِكَ، وَعُرِفَ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ البَشَرَ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ المُتَكَلِّمُ هُوَ رَبَّ العَالَمِينَ؟ فَإِنَّ هَذَا لَوْ كَانَ حَقًّا لَظَهَرَ ظُهُورًا أَعْظَمَ مِنْ ظُهُورِ كَلَامِ المَلَكِ وَالجِنِّيِّ عَلَى لِسَانِ البَشَرِ بِكَثِيرٍ كَثِيرٍ.

وَأَمَّا مَا شَاهَدُوهُ مِنْ مُعْجِزَاتِ المَسِيحِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَدْ شَاهَدُوا مِنْ غَيْرِهِ مَا هُوَ مِثْلُهَا وَأَعْظَمُ مِنْهَا، وَقَدْ أَحْيَا غَيْرُهُ المَيِّتَ وَأَخْبَرَهُ بِالغُيُوبِ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَمُعْجِزَاتُ مُوسَى أَعْظَمُ مِنْ مُعْجِزَاتِهِ أَوْ أَكْثَرُ، وَظُهُورُ المُعْجِزَاتِ عَلَى يَدَيْهِ يَدُلُّ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ، كَمَا دَلَّتِ المُعْجِزَاتُ عَلَى نُبُوَّةِ غَيْرِهِ، وَرِسَالَتِهِم، لَا تَدُلُّ عَلَى الإِلَهِيَّةِ.

وَالدَّجَّالُ لَمَّا ادَّعَى الإِلَهِيَّةَ لَمْ يَكُنْ مَا يَظْهَرُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الخَوَارِقِ دَلِيلًا عَلَيْهَا، لِأَنَّ دَعْوَى الإِلَهِيَّةِ مُمْتَنِعَةٌ، فَلَا يَكُونُ فِي ظُهُورِ العَجَائِبِ مَا يَدُلُّ عَلَى الأَمْرِ المُمْتَنِعِ.

❁❁❁

فَصْلٌ

قَالُوا: وَقَدْ قَالَ اللهُ عَلَى أَفْوَاهِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، الَّذِينَ تَنَبَّوْا عَلَى وِلَادَتِهِ مِنَ العَذْرَاءِ الطَّاهِرَةِ مَرْيَمَ، وَعَلَى جَمِيعِ أَفْعَالِهِ الَّتِي فَعَلَهَا فِي الأَرْضِ، وَصُعُودِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَهَذِهِ النُّبُوَّاتُ جَمِيعُهَا عِنْدَ اليَهُودِ مُقِرِّينَ وَمُعْتَرِفِينَ بِهَا وَيَقْرَؤُنَهَا فِي كَنَائِسِهِم، وَلَمْ يُنْكِرُوا مِنْهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً.

فَيُقَالُ: هَذَا كُلُّهُ مِمَّا لَا يُنَازِعُ المُسْلِمُونَ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَا رَيْبَ أَنَّهُ وُلِدَ مِن مَرْيَمَ العَذْرَاءِ البَتُولِ الَّتِي لَمْ يَمَسَّهَا بَشَرٌ قَطُّ، وَأَنَّ اللهَ أَظْهَرَ عَلَى يَدَيْهِ الآيَاتِ، وَأَنَّهُ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، فَإِذَا كَانَ هَذَا مِمَّا أَخْبَرَتْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ فِي النُّبُوَّاتِ الَّتِي عِنْدَ اليَهُودِ لَمْ يُنْكِرُوا ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ اليَهُودُ يَتَأَوَّلُونَ ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ المَسِيحِ، كَمَا فِي النُّبُوَّاتِ مِنَ البِشَارَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَهُوَ حَقٌّ، وَإِنْ كَانَ الكَافِرُونَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ يَتَأَوَّلُونَ ذَلِكَ عَلَى غَيْرِهِ.

❁❁❁

فَصْلٌ

قَالُوا: وَسَبِيلُنَا أَنْ نَذْكُرَ مِنْ بَعْضِ قَوْلِ الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ تَنَبَّؤا عَلَى السَّيِّدِ المَسِيحِ، وَنُزُولِهِ إِلَى الأَرْضِ، قَالَ (عِزْرَا)[١] الكَاهِنُ حَيْثُ سَبَاهُم بُخْتَنَصَّرُ الفَرِيدِيُّ إِلَى أَرْضِ بَابِلَ[٢] إِلَى أَرْبَعِمِائَةٍ وَاثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً: (يَأْتِي المَسِيحُ وَيُخَلِّصُ الشُّعُوبَ وَالأُمَمَ)، وَفِي كَمَالِ هَذِهِ المُدَّةِ أَتَى السَّيِّدُ المَسِيحُ. وَقَالَ أَرْمِيَا[٣] النَّبِيُّ عَنْ وِلَادَتِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ: يَقُومُ لِدَاوُدَ ابْنٌ هُوَ ضَوْءُ النُّورِ يَمْلِكُ المُلْكَ وَيُعَلِّمُ وَيُفَهِّمُ وَيُقِيمُ الحَقَّ وَالعَدْلَ فِي الأَرْضِ وَيُخَلِّصُ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ اليَهُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِم، وَيَبْقَى بَيْتُ المَقْدِسِ بِغَيْرِ مُقَاتِلٍ وَيُسَمَّى الإِلَهَ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ابْنٌ لِدَاوُدَ لِأَنَّ مَرْيَمَ كَانَتْ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ: يَقُومُ لِدَاوُدَ ابْنٌ.

فَيُقَالُ: أَمَّا قَوْلُ عِزْرَا الكَاهِنِ فَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا إِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ يَأْتِي المَسِيحُ وَيُخَلِّصُ الشُّعُوبَ وَالأُمَمَ، وَهَذَا مِمَّا لَا يُنَازِعُ فِيهِ المُسْلِمُونَ، فَإِنَّهُمْ يُقِرُّونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ إِتْيَانِ

---

(١) **عزرا**: هو الكاهن ابن سرايا، لُقب بالكاتب إذ إنه كان موظفًا في بلاد إمبراطور الفرس (إرتحتشتا) ومستشارًا له في شئون الطائفة اليهودية التي كانت تقيم فيها بين النهرين منذ أيام السبي وهو يعتبر مؤسس نظم اليهودية المتأخرة ولقب بالكاهن.

(٢) **بابل**: مدينة قديمة بأرض الرافدين كانت قاعدة إمبراطورية بابل وتقع على الفرات إلى الشمال من المدن التي ازدهرت في جنوب أرض الرافدين منذ الألف الثالثة قبل الميلاد لم تبلغ أهميتها إلا بعد أن جعلها حمورابي عاصمة له، بها حدائق بابل المعلقة إحدى عجائب الدنيا السبع، وجرى صيتها مجرى الأساطير منذ أيام نبوخذ نصر (ت ٥٦٢ ق.م)، وعرفت بين الإغريق بأنها مكان المسرات، ويقال بها بئر هاروت وماروت.

(٣) **أرميا بن حلقيا** الكاهن من عناثوت، وقد دعاه الرب للقيام بالعمل النبوي في رؤيا رآها وهو بعد حدث فأحس بأنه قليل الخبرة فقال له الرب: جعلت كلامي في فمك وأقمتك اليوم على الشعوب والممالك لتقطع وتهدم وتبني وتغرس، وقد دامت خدمته ثمان عشرة سنة وثلاثة أشهر.

المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَخْلِيصِ اللهِ بِهِ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ إِلَى أَنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَكُلُّ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِالمَسِيحِ، مُتَّبِعًا لِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَبْدِيلٍ، فَإِنَّ اللهَ خَلَّصَهُ بِالمَسِيحِ مِنْ شَرِّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، كَمَا خَلَّصَ اللهُ تَعَالَى بِمُوسَى مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَمَنْ حَرَّفَ وَبَدَّلَ فَلَمْ يَتَّبِعِ المَسِيحَ، وَمَنْ كَذَّبَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ كَمَنْ كَذَّبَ المَسِيحَ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُقِرًّا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَلَكِنَّ هَذَا النَّصَّ وَأَمْثَالَهُ حُجَّةٌ عَلَى اليَهُودِ الَّذِينَ يَتَأَوَّلُونَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَإِنَّمَا هُوَ مَسِيحٌ يُنْتَظَرُ، وَإِنَّمَا يَنْتَظِرُونَ المَسِيحَ الدَّجَّالَ مَسِيحَ الضَّلَالَةِ، فَإِنَّ اليَهُودَ يَتَّبِعُونَهُ وَيَقْتُلُهُمُ المُسْلِمُونَ مَعَهُ «**حَتَّى يَقُولَ الشَّجَرُ وَالحَجَرُ: يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي تَعَالَ فَاقْتُلْهُ**»(١) وَهَكَذَا يُقَالُ فِي النُّبُوَّةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي ذَكَرُوهَا عَنْ أَرْمِيَا النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

❁❁❁

(١) أخرجه البخاري [٣٥٩٣] ومسلم [٢٩٢١] وأحمد (٢/ ١٢٢) والترمذي [٢٢٣٦] وابن حبان [٦٨٠٦] من طرق عن سالم عن ابن عمر، بنحوه.
وقد خرجته بطرقه ومن رواه غير ابن عمر في «النهاية في الفتن».

فَصْلٌ

قَالُوا: وَقَالَ أَرْمِيَا النَّبِيُّ عَنْ وِلَادَتِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ: يَقُومُ لِدَاوُدَ ابْنٌ، وَهُوَ ضَوْءُ النُّورِ يَمْلِكُ الْمُلْكَ، وَيُعَلِّمُ وَيُفَهِّمُ وَيُقِيمُ الحَقَّ وَالعَدْلَ فِي الأَرْضِ، وَيُخَلِّصُ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ اليَهُودِ، مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ وَيَبْقَى بَيْتُ المَقْدِسِ بِغَيْرِ مُقَاتِلٍ، وَيُسَمَّى الإِلَهَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ابْنٌ لِدَاوُدَ لِأَنَّ مَرْيَمَ كَانَتْ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ قَالَ: (وَيَقُومُ لِدَاوُدَ ابْنٌ).

وَالجَوَابُ أَنْ يُقَالَ: قَدْ قَالَ فِيهِ: وَيُخَلِّصُ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ اليَهُودِ، وَمِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَهُوَ كَمَا فَسَّرْنَا بِهِ التَّخْلِيصَ الَّذِي نَقَلَهُ عَن عِزْرَا الكَاهِنِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: (وَاسْمُهُ الإِلَهُ) فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ، وَإِنَّمَا لَفْظُ الإِلَهِ اسْمٌ سُمِّيَ بِهِ كَمَا سُمِّيَ مُوسَى إِلَهًا لِفِرْعَوْنَ عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ، إِذْ لَوْ كَانَ هُوَ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ لَكَانَ أَجَلَّ مِنْ أَنْ يُقَالَ وَيُسَمَّى الإِلَهَ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُعْرَفُ بِمِثْلِ هَذَا وَيُقَالُ فِيهِ: إِنَّ اللهَ يُسَمَّى الإِلَهَ، وَلَقَالَ: يَأْتِي اللهُ بِنَفْسِهِ فَيَظْهَرُ. وَقَالَ: يَمْلِكُ الْمُلْكَ، وَرَبُّ العَالَمِينَ مَا زَالَ وَلَا يَزَالُ مَالِكًا لِلْمُلْكِ سُبْحَانَهُ.

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ: (يَقُومُ لِدَاوُدَ ابْنٌ هُوَ ضَوْءُ النُّورِ)، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الِابْنَ الَّذِي مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ الَّذِي اسْمُ أُمِّهِ مَرْيَمُ هُوَ النَّاسُوتُ فَقَطْ، فَإِنَّ اللَّاهُوتَ لَيْسَ هُوَ مِنْ نَسْلِ البَشَرِ، وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا النَّاسُوتَ الَّذِي هُوَ ابْنُ دَاوُدَ، يُسَمَّى الإِلَهَ، فَعُلِمَ أَنَّ هَذَا اسْمٌ لِلنَّاسُوتِ المَخْلُوقِ لَا لِلْإِلَهِ الخَالِقِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ: وَهُوَ ضَوْءُ النُّورِ لَمْ يَجْعَلْهُ النُّورَ نَفْسَهُ، بَلْ جَعَلَهُ ضَوْءَ النُّورِ، وَاللهُ تَعَالَى مُنَوِّرُ كُلِّ نُورٍ، فَكَيْفَ يَكُونُ هُوَ ضَوْءَ النُّورِ، وَاللهُ تَعَالَى قَدْ سَمَّى مُحَمَّدًا ﷺ سِرَاجًا مُنِيرًا، وَلَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ خَالِقًا، فَكَيْفَ إِذَا سُمِّيَ ضَوْءَ النُّورِ؟

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ القَائِمَ إِلَّا ابْنَ دَاوُدَ، وَابْنُ دَاوُدَ مَخْلُوقٌ؛ وَأَضَافَ الفِعْلَ إِلَى هَذَا المَخْلُوقِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا هُوَ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ قَدِ اتَّحَدَ بِالنَّاسُوتِ البَشَرِيِّ لَبَيَّنَ أَرْمِيَا، وَغَيْرُهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ ذَلِكَ بَيَانًا قَاطِعًا لِلْعُذْرِ، وَلَمْ يَكْتَفُوا بِمِثْلِ هَذِهِ الأَلْفَاظِ الَّتِي هِيَ إِمَّا صَرِيحَةٌ أَوْ ظَاهِرَةٌ فِي نَقِيضِ ذَلِكَ، أَوْ مُجْمَلَةٌ لَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ مِنَ المَعْلُومِ أَنَّ إِخْبَارَهُمْ بِإِتْيَانِ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ أَمْرٌ مُعْتَادٌ مُمْكِنٌ، وَمَعَ هَذَا يَذْكُرُونَ فِيهِ مِنَ البِشَارَاتِ وَالدَّلَائِلِ الوَاضِحَةِ مَا يُزِيلُ الشُّبْهَةَ.

وَأَمَّا الإِخْبَارُ بِمَجِيءِ الرَّبِّ نَفْسِهِ وَحُلُولِهِ أَوِ اتِّحَادِهِ بِنَاسُوتٍ بَشَرِيٍّ فَهُوَ: إِمَّا مُمْتَنِعٌ غَيْرُ مُمْكِنٍ كَمَا يَقُولُهُ أَكْثَرُ العُقَلَاءِ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَيَقُولُونَ: يُعْلَمُ بِصَرِيحِ العَقْلِ أَنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ.

وَإِمَّا مُمْكِنٌ كَمَا يَقُولُهُ بَعْضُ النَّاسِ، وَحِينَئِذٍ فَإِمْكَانُهُ خَفِيَ عَلَى أَكْثَرِ العُقَلَاءِ وَهُوَ أَمْرٌ غَيْرُ مُعْتَادٍ، وَإِتْيَانُ الرَّبِّ بِنَفْسِهِ أَعْظَمُ مِنْ إِتْيَانِ كُلِّ رَسُولٍ وَنَبِيٍّ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ إِتْيَانُهُ بِاتِّحَادِهِ بِبَشَرٍ لَمْ يَظْهَرْ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الآيَاتِ مَا يَخْتَصُّ بِالإِلَهِيَّةِ، بَلْ لَمْ يَظْهَرْ عَلَى يَدَيْهِ إِلَّا مَا ظَهَرَ عَلَى يَدِ غَيْرِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ مَا هُوَ مِثْلُهُ أَوْ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَاللهُ تَعَالَى لَمَّا كَانَ يُكَلِّمُ مُوسَى وَلَمْ يَكُنْ مُوسَى يَرَاهُ، وَلَا يَتَّحِدُ لَا بِمُوسَى وَلَا بِغَيْرِهِ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ أَظْهَرَ مِنَ الآيَاتِ عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَى نُبُوَّةِ مُوسَى مَا لَمْ يَظْهَرْ مِثْلُهُ وَلَا قَرِيبٌ مِنْهُ عَلَى يَدِ المَسِيحِ.

فَلَوْ كَانَ هُوَ بِذَاتِهِ مُتَّحِدًا بِنَاسُوتٍ بَشَرِيٍّ لَكَانَ الأَنْبِيَاءُ يُخْبِرُونَ بِذَلِكَ إِخْبَارًا صَرِيحًا بَيِّنًا لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَاتِ، وَلَكَانَ الرَّبُّ يُظْهِرُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ مَا لَمْ يُظْهِرْ عَلَى يَدِ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ، فَكَيْفَ وَالأَنْبِيَاءُ لَمْ يَنْطِقُوا فِي ذَلِكَ بِلَفْظٍ صَرِيحٍ، بَلِ النُّصُوصُ الصَّرِيحَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَسِيحَ مَخْلُوقٌ وَلَمْ تَأْتِ آيَةٌ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، بَلْ إِنَّمَا تَدُلُّ الآيَاتُ عَلَى نُبُوَّةِ المَسِيحِ.

فَصْلٌ

قَالُوا: وَقَالَ أَشْعِيَا النَّبِيُّ: قُلْ لِصِهْيُونَ هُنَا تَفْرَحُ وَتَتَهَلَّلُ، فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي وَيُخَلِّصُ الشُّعُوبَ، وَيُخَلِّصُ مَنْ آمَنَ بِهِ وَبِشَعْبِهِ وَيُخَلِّصُ مَدِينَةَ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَيُظْهِرُ اللهُ ذِرَاعَهُ الطَّاهِرَ فِيهَا لِجَمِيعِ الأُمَمِ المُبَدِّدِينَ وَيَجْعَلُهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَيُبَصِّرُونَ جَمِيعَ أَهْلِ الأَرْضِ مِنْ خَلَاصِ اللهِ، لِأَنَّهُ يَمْشِي مَعَهُمْ وَبَيْنَ يَدَيْهِم، وَيَجْمَعُهُمْ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ.

فَيُقَالُ: هَذَا مُحْتَاجٌ أَوَّلًا أَنْ يُعْلَمَ مِنْ هَذِهِ النُّبُوَّةِ أَنَّ هَذَا الكَلَامَ نُقِلَ بِلَا تَحْرِيفٍ لِلَفْظِهِ، وَلَا غَلَطٍ فِي التَّرْجَمَةِ، وَلَمْ يَثْبُتْ ذَلِكَ، وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ فَحِينَئِذٍ هُوَ نَظِيرُ مَا فِي التَّوْرَاةِ مِنْ قَوْلِهِ: (جَاءَ اللهُ مِن طُورِ سَيْنَا، وَأَشْرَفَ مِنْ سَاعِيرَ، وَاسْتَعْلَنَ مِن جِبَالِ فَارَانَ).

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ فِي هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ حَالٌّ فِي مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، وَمُتَّحِدٌ بِهِ، وَلَا أَنَّهُ حَالٌّ فِي جَبَلِ فَارَانَ، وَلَا أَنَّهُ مُتَّحِدٌ بِشَيْءٍ مِنْ طُورِ سَيْنَا، وَلَا سَاعِيرَ.

وَكَذَلِكَ هَذَا اللَّفْظُ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ حَالٌّ فِي المَسِيحِ وَمُتَّحِدٌ بِهِ، إِذْ كِلَاهُمَا سَوَاءٌ، وَإِذَا قِيلَ: المُرَادُ بِذَلِكَ قُرْبُهُ وَدُنُوُّهُ كَتَكْلِيمِ مُوسَى، وَظُهُورِ نُورِهِ وَهُدَاهُ وَكِتَابِهِ وَدِينِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي وَقَعَت، قِيلَ: وَهَكَذَا فِي المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَوْلُهُ: (وَيُظْهِرُ اللهُ ذِرَاعَهُ الطَّاهِرَ لِجَمِيعِ الأُمَمِ المُبَدِّدِينَ)، قَدْ قَالَ فِي التَّوْرَاةِ مِثْلَ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَلَمْ يَدُلَّ ذَلِكَ عَلَى اتِّحَادِهِ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ عَنِ الأُمَمِ المُبَدَّدِينَ: فَيَجْعَلُهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، فَهُمُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا المَسِيحَ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُتَفَرِّقِينَ مُبَدَّدِينَ فَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَيُبَصِّرُونَ جَمِيعَ أَهْلِ الأَرْضِ خَلَاصَ اللهِ، لِأَنَّهُ يَمْشِي مَعَهُمْ وَبَيْنَ يَدَيْهِم، وَيَجْمَعُهُمْ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ، فَمِثْلُ هَذَا فِي التَّوْرَاةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَلَمْ يَدُلَّ ذَلِكَ عَلَى اتِّحَادِهِ

بِمُوسَى وَلَا حُلُولِهِ فِيهِ، كَقَوْلِهِ فِي السِّفْرِ الخَامِسِ مِنَ التَّوْرَاةِ: يَقُولُ مُوسَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: لَا تَهَابُوهُم وَلَا تَخَافُوهُم، لِأَنَّ اللهَ رَبَّكُمُ السَّائِرَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ هُوَ يُحَارِبُ عَنْكُم.

وَفِي مَوْضِعٍ قَالَ مُوسَى: إِنَّ الشَّعْبَ هُوَ شَعْبُكَ، فَقَالَ: أَنَا أَمْضِي أَمَامَكَ فَارْتَحِل، فَقَالَ: إِنْ لَمْ تَمْضِ أَنْتَ أَمَامَنَا وَإِلَّا فَلَا تُصْعِدْنَا مِنْ هَاهُنَا، وَكَيْفَ أَعْلَمُ أَنَا وَهَذَا الشَّعْبُ أَنِّي وَجَدْتُ أَمَامَكَ نِعْمَةَ كَذَا إِلَّا بِسَيْرِكَ مَعَنَا.

وَفِي السِّفْرِ الرَّابِعِ مِنَ الفَصْلِ الثَّالِثَ عَشَرَ: إِنْ أَصْعَدْتَ هَؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِهِمْ بِقُدْرَتِكَ، فَيَقُولُونَ لِأَهْلِ هَذِهِ الأَرْضِ الَّذِينَ سَمِعُوا أَنَّكَ اللهُ فِيمَا بَيْنَ هَؤُلَاءِ القَوْمِ، يَرَوْنَهُ عَيْنًا بِعَيْنٍ، وَغَمَامُكَ يُقِيمُ عَلَيْهِم، وَبِعَمُودِ غَمَامٍ يَسِيرُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ نَهَارًا، وَبِعَمُودِ نَارٍ لَيْلًا.

وَفِي التَّوْرَاةِ أَيْضًا: يَقُولُ اللهُ لِمُوسَى: (إِنِّي آتٍ إِلَيْكَ فِي غِلَظِ الغَمَامِ لِكَيْ يَسْمَعَ القَوْمُ مُخَاطَبَتِي لَكَ).

ثُمَّ قَوْلُهُ: اجْمَعْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ شُيُوخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخُذْهُمْ إِلَى خِبَاءِ العَرَبِ يَقِفُونَ مَعَكَ حَتَّى أُخَاطِبَهُم.

❁❁❁

فَصْلٌ

قَالُوا: وَقَالَ زَكَرِيَّا النَّبِيُّ: (افْرَحِي يَا بَيْتَ صِهْيُونَ، لِأَنِّي آتِيكِ وَأَحُلُّ فِيكِ وَأَتَرَايَا، قَالَ اللهُ: وَيُؤْمِنُ بِاللهِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ الأُمَمُ الكَثِيرَةُ، وَيَكُونُونَ لَهُ شَعْبًا وَاحِدًا، وَيَحُلُّ هُوَ وَهُمْ فِيكِ، وَتَعْرِفِينَ أَنِّي أَنَا اللهُ القَوِيُّ السَّاكِنُ فِيكِ، وَيَأْخُذُ اللهُ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ المُلْكَ مِنْ يَهُوذَا، وَيُمَلِّكُ عَلَيْهِمْ إِلَى الأَبَدِ.

فَيُقَالُ: مِثْلُ هَذَا قَدْ ذُكِرَ عِنْدَهُمْ عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَغَيْرِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ أَنَّ اللهَ تَجَلَّى لَهُ، وَاسْتَعْلَنَ لَهُ، وَتَرَايَا لَهُ، وَنَحْوُ هَذِهِ العِبَارَاتِ، وَلَمْ يَدُلَّ ذَلِكَ عَلَى حُلُولِهِ فِيهِ وَاتِّحَادِهِ بِهِ.

وَكَذَلِكَ إِتْيَانُهُ، وَهُوَ لَمْ يَقُلْ: إِنِّي أَحُلُّ فِي المَسِيحِ وَأَتَّحِدُ بِهِ، وَإِنَّمَا قَالَ عَنْ بَيْتِ صِهْيُونَ: (آتِيكِ وَأَحُلُّ فِيكِ) كَمَا قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا وَلَمْ يَدُلَّ عَلَى حُلُولِهِ فِي بَشَرٍ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: (وَتَعْرِفِينَ أَنِّي أَنَا اللهُ القَوِيُّ السَّاكِنُ فِيكِ) لَمْ يُرِدْ بِهَذَا اللَّفْظِ حُلُولَهُ فِي المَسِيحِ، فَإِنَّ المَسِيحَ لَمْ يَسْكُنْ بَيْتَ المَقْدِسِ وَهُوَ قَوِيٌّ، بَلْ كَانَ يَدْخُلُهَا وَهُوَ مَغْلُوبٌ مَقْهُورٌ حَتَّى أُخِذَ وَصُلِبَ أَوْ شُبِّهَ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ إِذَا حَصَلَتْ مَعْرِفَتُهُ وَالإِيمَانُ بِهِ فِي القُلُوبِ اطْمَأَنَّتْ وَسَكَنَتْ.

وَكَانَ بَيْتُ المَقْدِسِ لَمَّا ظَهَرَ فِيهِ دِينُ المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ رَفْعِهِ حَصَلَ فِيهِ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ وَمَعْرِفَتِهِ مَا لَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ.

وَجِمَاعُ هَذَا أَنَّ النُّبُوَّاتِ المُتَقَدِّمَةَ وَالكُتُبَ الإِلَهِيَّةَ كَالتَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ، وَسَائِرِ نُبُوَّاتِ الأَنْبِيَاءِ لَمْ تَخُصَّ المَسِيحَ بِشَيْءٍ يَقْتَضِي اخْتِصَاصَهُ بِاتِّحَادِ اللَّاهُوتِ بِهِ وَحُلُولِهِ فِيهِ كَمَا يَقُولُهُ النَّصَارَى، بَلْ لَمْ تَخُصَّهُ إِلَّا بِمَا خَصَّهُ اللهُ بِهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

فَكُتُبُ الأَنْبِيَاءِ المُتَقَدِّمَةُ، وَسَائِرُ النُّبُوَّاتِ مُوَافِقَةٌ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَسَائِرُ مَا تَسْتَدِلُّ بِهِ النَّصَارَى عَلَى إِلَهِيَّتِهِ مِنْ كَلَامِ الأَنْبِيَاءِ قَدْ يُوجَدُ مِثْلُ تِلْكَ الكَلِمَاتِ فِي حَقِّ غَيْرِ المَسِيحِ، فَتَخْصِيصُ المَسِيحِ بِالإِلَهِيَّةِ وَدُونَ غَيْرِهِ بَاطِلٌ، وَذَلِكَ مِثْلُ اسْمِ الِابْنِ وَالمَسِيحِ وَمِثْلُ حُلُولِ رُوحِ القُدُسِ فِيهِ، وَمِثْلُ تَسْمِيَتِهِ إِلَهًا، وَمِثْلُ ظُهُورِ الرَّبِّ أَوْ حُلُولِهِ فِيهِ أَوْ سُكُونِهِ فِيهِ أَوْ فِي مَكَانِهِ.

فَهَذِهِ الكَلِمَاتُ وَمَا أَشْبَهَهَا مَوْجُودَةٌ فِي حَقِّ غَيْرِ المَسِيحِ عِنْدَهُم، وَلَمْ يَكُونُوا بِذَلِكَ آلِهَةً.

وَلَكِنِ القَائِلُونَ بِالحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ فِي حَقِّ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ قَدْ يَحْتَجُّونَ بِهَذِهِ الكَلِمَاتِ.

وَهَذَا المَذْهَبُ بَاطِلٌ بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَهُوَ بَاطِلٌ فِي نَفْسِهِ عَقْلًا وَنَقْلًا، وَإِنْ كَانَ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الإِلْحَادِ وَالبِدَعِ المُنْتَسِبِينَ إِلَى المُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى تَقُولُ بِهِ، فَهَؤُلَاءِ اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ مَا يَحُلُّ فِي قُلُوبِ العَارِفِينَ بِهِ، مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ بِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَنُورِهِ وَهُدَاهُ وَالرُّوحِ مِنْهُ، وَمَا يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالمَثَلِ الأَعْلَى، وَالمِثَالِ العِلْمِيِّ.

وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ ذَاتُ الرَّبِّ، كَمَنْ يَظُنُّ أَنَّ نَفْسَ اللَّفْظِ بِالِاسْمِ هُوَ المَعْنَى الَّذِي فِي القَلْبِ، أَوْ نَفْسَ الخَطِّ هُوَ نَفْسُ اللَّفْظِ، وَمَنْ يَظُنُّ أَنَّ ذَاتَ المَحْبُوبِ حَلَّتْ فِي ذَاتِ المُحِبِّ وَاتَّحَدَتْ بِهِ، أَوْ نَفْسَ المَعْرُوفِ المَعْلُومِ حَلَّ فِي ذَاتِ العَالِمِ العَارِفِ بِهِ وَاتَّحَدَ بِهِ، مَعَ العِلْمِ اليَقِينِيِّ أَنَّ نَفْسَ المَحْبُوبِ المَعْلُومِ بَايِنٌ عَنْ ذَاتِ المُحِبِّ رُوحِهِ وَبَدَنِهِ، لَمْ يَحُلَّ وَاحِدٌ مِنْهَا فِي ذَاتِ المُحِبِّ.

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣].

فَالْمُؤْمِنُونَ يَعْرِفُونَ اللهَ وَيُحِبُّونَهُ وَيَعْبُدُونَهُ وَيَذْكُرُونَهُ وَيُقَالُ هُوَ فِي قُلُوبِهِم، وَالْمُرَادُ مَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَعِبَادَتُهُ، وَهُوَ الْمَثَلُ الْعِلْمِيُّ لَيْسَ الْمُرَادُ نَفْسَ ذَاتِهِ، كَمَا يَقُولُ الإِنْسَانُ لِغَيْرِهِ: أَنْتَ فِي قَلْبِي، وَمَا زِلْتَ فِي قَلْبِي وَبَيْنَ عَيْنَيَّ، وَيُقَالُ:

سَاكِنٌ فِي الْقَلْبِ يَعْمُرُهُ ... لَسْتُ أَنْسَاهُ فَأَذْكُرُهُ

وَيُقَالُ:

إِنَّ بَيْتًا أَنْتَ سَاكِنُهُ ... غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى السُّرُجِ

وَمِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ:

وَمِنْ عَجَبِي أَنِّي أَحِنُّ إِلَيْهِمُ ... وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيتُ وَهُمْ مَعِي

وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا ... وَيَشْتَاقُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلُعِي

وَقَالَ:

مِثَالُكَ فِي عَيْنِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي ... وَمَثْوَاكَ فِي قَلْبِي فَأَيْنَ تَغِيبُ؟

وَالْمَسَاجِدُ: هِيَ بُيُوتُ اللهِ الَّتِي فِيهَا يَظْهَرُ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: مَثَلُ نُورِهِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦].

فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ نُورَهُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي بُيُوتِهِ، كَذَلِكَ مَا ذُكِرَ فِي الْكُتُبِ الأُولَى.

وَأَمَّا الإِتْيَانُ وَالمَجِيءُ وَالتَّجَلِّي فَعِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ يَقُولُ اللهُ لِمُوسَى: إِنِّي آتِي إِلَيْكَ فِي غِلَظِ الغَمَامِ لِكَيْ يَسْمَعَ القَوْمُ مُخَاطَبَتِي لَكَ، ثُمَّ قَوْلُهُ: اجْمَعْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ شُيُوخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَخُذْهُم إِلَى خِبَاءِ العَرَبِ يَقِفُونَ مَعَكَ حَتَّى أُخَاطِبَهُم.

وَفِي السِّفْرِ الرَّابِعِ لَمَّا كَلَّمَ مَرْيَمَ وَهَارُونَ فِي مُوسَى: (حِينَئِذٍ تَجَلَّى اللهُ بِعَمُودِ الغَمَامِ قَائِمًا عَلَى بَابِ الخِبَاءِ وَنَادَى يَا هَارُونُ وَيَا مَرْيَمُ، فَخَرَجَا كِلَاهُمَا فَقَالَ: اسْمَعَا كَلَامِي إِنِّي أَنَا اللهُ فِيمَا بَيْنَكُم).

وَفِي الفَصْلِ الثَّالِثَ عَشَرَ: (إِنْ أَصْعَدْتَ هَؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِهِمْ بِقُدْرَتِكَ، فَيَقُولُونَ لِأَهْلِ هَذِهِ الأَرْضِ الَّذِينَ سَمِعُوا أَنَّكَ اللهُ فِيمَا بَيْنَ هَؤُلَاءِ القَوْمِ يَرَوْنَهُ عَيْنًا بِعَيْنٍ وَغَمَامُكَ يُقِيمُ عَلَيْهِم، وَبِعَمُودِ غَمَامٍ يَسِيرُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ نَهَارًا وَبِعَمُودِ نَارٍ لَيْلًا).

وَفِي السِّفْرِ الخَامِسِ قَوْلُ مُوسَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: (لَا تَهَابُوهُمْ وَلَا تَخَافُوهُم، لِأَنَّ اللهَ رَبَّكُمُ السَّائِرَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ هُوَ يُحَارِبُ عَنْكُم).

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ قَالَ مُوسَى: (إِنَّ الشَّعْبَ هُوَ شَعْبُكَ، فَقَالَ: يَا مُوسَى أَنَا أَمْضِي أَمَامَكَ فَارْتَحِل، فَقَالَ: إِنْ لَمْ تَمْضِ أَنْتَ مَعَنَا وَإِلَّا فَلَا تُصْعِدْنَا مِنْ هَاهُنَا، وَكَيْفَ أَعْلَمُ أَنَا وَهَذَا الشَّعْبُ أَنِّي وَجَدْتُ أَمَامَكَ نِعْمَةً كَذَا بِعِلْمِكَ إِلَّا بِسَيْرِكَ مَعَنَا؟).

وَفِي المَزْمُورِ الرَّابِعِ مِنَ الزَّبُورِ عِنْدَهُمْ يَقُولُ: (وَلِيُفْرِحَ المُتَّكِلُونَ عَلَيْكَ إِلَى الأَبَدِ وَيَبْتَهِجُونَ وَيَحُلُّ فِيهِمْ وَيَفْتَخِرُونَ) فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَحُلُّ فِي جَمِيعِ الصِّدِّيقِينَ، أَيْ مَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ، فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ ذَاتَ اللهِ لَمْ تَحُلَّ فِي الصِّدِّيقِينَ، وَكَذَلِكَ فِي رَسَائِلِ يُوحَنَّا الإِنْجِيلِيِّ: (إِذَا أَخْفَى بَعْضُنَا بَعْضًا نَعْلَمُ أَنَّ اللهَ يَلْبَثُ فِينَا) أَيْ مَحَبَّتَهُ، وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ.

فَصْلٌ

قَالُوا: وَقَالَ عَامُوصَ النَّبِيُّ: سَتُشْرِقُ الشَّمْسُ عَلَى الأَرْضِ، وَيَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّونَ وَيَضِلُّ عَنْهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ، قَالُوا: فَالشَّمْسُ هُوَ السَّيِّدُ المَسِيحُ، وَالضَّالُّونَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا بِهِ هُمُ النَّصَارَى المُخْتَلِفَةُ أَلْسِنَتُهُم، الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِ عَابِدِينَ الأَصْنَامَ وَضَالِّينَ عَنْ مَعْرِفَةِ اللهِ، فَلَمَّا أَتَوْهُمُ التَّلَامِيذُ وَأَنْذَرُوهُمْ بِمَا أَوْصَاهُمُ السَّيِّدُ المَسِيحُ فَتَرَكُوا عِبَادَةَ الأَصْنَامِ وَاهْتَدَوْا بِاتِّبَاعِهِمُ السَّيِّدَ المَسِيحَ.

فَيُقَالُ: هَذَا مِمَّا لَا يُنَازِعُ فِيهِ المُسْلِمُونَ، وَإِنَّمَا يُنَازِعُ فِي مِثْلِ هَذَا وَأَمْثَالِهِ اليَهُودُ المُكَذِّبُونَ لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا يُنَازِعُ كُفَّارُ أَهْلِ الكِتَابِ فِي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأَمَّا المُسْلِمُونَ فَيُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللهِ وَرُسُلِهِ، وَأَنَّ المَسِيحَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَشْرَقَ نُورُهُ عَلَى الأَرْضِ! كَمَا أَشْرَقَ قَبْلَهُ نُورُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَشْرَقَ بَعْدَهُ نُورُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

فَسَمَّاهُ اللهُ سِرَاجًا مُنِيرًا، وَسَمَّى الشَّمْسَ سِرَاجًا وَهَّاجًا، وَالسِّرَاجُ المُنِيرُ أَكْمَلُ مِنَ السِّرَاجِ الوَهَّاجِ، فَإِنَّ الوَهَّاجَ لَهُ حَرَارَةٌ تُؤْذِي، وَالمُنِيرَ يُهْتَدَى بِنُورِهِ مِنْ غَيْرِ أَذًى بِوَهَجِهِ.

وَقَالَ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

وَالمُسْلِمُونَ مُقِرُّونَ بِأَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ مُتَّبِعًا لِدِينِ المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي لَمْ يُغَيَّرْ وَلَمْ يُبَدَّل، فَإِنَّهُ اهْتَدَى بِالمَسِيحِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِنَّهُ ضَالٌّ، بَلْ كَافِرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٥-٥٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤].

وَقَوْلُهُ: سَتُشْرِقُ الشَّمْسُ عَلَى الأَرْضِ وَيَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّونَ وَيَضِلُّ عَنْهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ - يُنَاسِبُ قَوْلَهُ فِي التَّوْرَاةِ: جَاءَ اللهُ مِنْ طُورِ سَيْنَا وَأَشْرَقَ مِنْ سَاعِيرَ، وَاسْتَعْلَنَ مِنْ جِبَالِ فَارَانَ، فَإِنَّ إِشْرَاقَهُ مِنْ سَاعِيرَ هُوَ ظُهُورُ نُورِهِ بِالمَسِيحِ، كَمَا أَنَّ مَجِيئَهُ مِنْ طُورِ سَيْنَا: هُوَ ظُهُورُ نُورِهِ بِمُوسَى، وَاسْتِعْلَانُهُ مِن جِبَالِ فَارَانَ هُوَ ظُهُورُ نُورِهِ بِمُحَمَّدٍ.

وَبِهَذِهِ الأَمَاكِنِ الثَّلَاثَةِ أَقْسَمَ اللهُ فِي القُرْآنِ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ [التين: ١-٣].

فَبَلَدُ التِّينِ وَالزَّيْتُونِ هِيَ الأَرْضُ المُقَدَّسَةُ الَّتِي بُعِثَ مِنْهَا المَسِيحُ، وَكَانَ بِهَا أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأُسْرِيَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهَا وَظَهَرَتْ بِهَا نُبُوَّتُهُ. وَطُورُ سِينِينَ المَكَانُ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ فِيهِ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ، وَهَذَا البَلَدُ الأَمِينُ هُوَ بَلَدُ مَكَّةَ الَّتِي بَعَثَ اللهُ مِنْهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ القُرْآنَ.

فَصْلٌ

قَالُوا: وَقَالَ فِي السِّفْرِ الثَّالِثِ مِنْ أَسْفَارِ الْمُلُوكِ: (وَالآنَ يَا رَبِّ إِلَهَ إِسْرَائِيلَ لِتُحَقِّقْ كَلَامَكَ لِدَاوُدَ، لِأَنَّهُ حَقٌّ أَنْ يَكُونَ إِنَّهُ سَيَسْكُنُ اللهُ مَعَ النَّاسِ عَلَى الأَرْضِ، اسْمَعُوا أَيَّتُهَا الشُّعُوبُ كُلُّكُم، وَلْتُنْصِتِ الأَرْضُ، وَكُلُّ مَنْ فِيهَا، فَيَكُونُ الرَّبُّ عَلَيْهَا شَاهِدًا مِنْ بَيْتِهِ الْقُدُّوسِ، وَيَخْرُجُ مِنْ مَوْضِعِهِ وَيَنْزِلُ وَيَطَأُ عَلَى مَشَارِيقِ الأَرْضِ فِي شَأْنِ خَطِيئَةِ بَنِي يَعْقُوبَ هَذَا كُلِّهِ.

فَيُقَالُ هَذَا السِّفْرُ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَثْبُتَ أَنَّ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ نَبِيٌّ، وَأَنَّ أَلْفَاظَهُ ضُبِطَتْ وَتُرْجِمَتْ إِلَى العَرَبِيَّةِ تَرْجَمَةً مُطَابِقَةً، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُقَالُ فِيهِ مَا يُقَالُ فِي أَمْثَالِهِ مِنَ الأَلْفَاظِ الْمَوْجُودَةِ عِنْدَهُم، وَلَيْسَ فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَى اتِّحَادِهِ بِالمَسِيحِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: (إِنَّ اللهَ سَيَسْكُنُ مَعَ النَّاسِ فِي الأَرْضِ) لَا يَدُلُّ عَلَى المَسِيحِ، إِذْ كَانَ المَسِيحُ لَمْ يَسْكُنْ مَعَ النَّاسِ فِي الأَرْضِ، بَلْ لَمَّا أَظْهَرَ الدَّعْوَةَ لَمْ يَبْقَ فِي الأَرْضِ إِلَّا مُدَّةً قَلِيلَةً، وَلَمْ يَكُنْ سَاكِنًا فِي مَوْضِعٍ مُعَيَّنٍ، وَقَبْلَ ذَلِكَ لَمْ يَظْهَرْ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ دَعْوَى النُّبُوَّةِ فَضْلًا عَنِ الإِلَهِيَّةِ، ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ فَلَمْ يَسْكُنْ مَعَ النَّاسِ فِي الأَرْضِ، وَأَيْضًا فَإِذَا قَالُوا: سُكُونُهُ هُوَ ظُهُورُهُ فِي المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ لَهُم: أَمَّا الظُّهُورُ الْمُمْكِنُ المَعْقُولُ، كَظُهُورِ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَنُورِهِ وَذِكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ، فَهَذَا لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ المَسِيحِ وَغَيْرِهِ.

وَحِينَئِذٍ فَلَيْسَ فِي هَذَا اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا السُّكُونَ كَانَ بِالمَسِيحِ دُونَ غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَ بِالمَسِيحِ فَلَيْسَ هَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَيْسَ فِي ظُهُورِهِ فِيهِ أَوْ حُلُولِ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَمِثَالِهِ العِلْمِيِّ مَا يُوجِبُ اتِّحَادَ ذَاتِهِ بِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: (فَيَكُونُ الرَّبُّ عَلَيْهَا شَاهِدًا)، فَيُقَالُ أَوَّلًا شُهُودُ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ لَا يَسْتَلْزِمُ حُلُولَهُ، أَوِ اتِّحَادَهُ بِبَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ، بَلْ هُوَ شَهِيدٌ عَلَى العِبَادِ بِأَعْمَالِهِمْ كَمَا قَالَ: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦].

وَلَفْظُ النَّصِّ: (وَلْتُنْصِتِ الأَرْضُ، وَكُلُّ مَنْ فِيهَا فَيَكُونُ الرَّبُّ عَلَيْهَا شَاهِدًا)، وَهَذَا كَمَا فِي التَّوْرَاةِ: أَنَّ مُوسَى لَمَّا خَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشْهَدَ عَلَيْهِمْ. وَكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانَ يَقُولُ لِأُمَّتِهِ لَمَّا بَلَّغَ النَّاسَ بِقَوْلِ: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» فَيَقُولُونَ: نَعَم، فَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»(١).

وَحِينَئِذٍ فَلَيْسَ فِي هَذَا تَعَرُّضٌ لِكَوْنِ المَسِيحِ هُوَ اللهَ، وَقَدْ يُقَالُ أَيْضًا: لَيْسَ فِيهِ أَنَّ المُرَادَ بِلَفْظِ الرَّبِّ هُنَا هُوَ اللهُ، وَلَفْظُ الرَّبِّ يُرَادُ بِهِ السَّيِّدُ المُطَاعُ، وَقَدْ غَايَرَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ، فَقَالَ هُنَاكَ: إِنَّهُ سَيَسْكُنُ اللهُ مَعَ النَّاسِ، فَقَالَ: فَيَكُونُ الرَّبُّ عَلَيْهَا شَاهِدًا، وَالأَنْبِيَاءُ يَشْهَدُونَ عَلَى أُمَمِهِم، كَمَا قَالَ المَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المَائِدَة: ١١٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المُزَّمِّل: ١٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النِّسَاء: ٤١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النَّحل: ٨٩].

وَحِينَئِذٍ فَيَكُونُ الرَّبُّ الشَّهِيدُ هُوَ المَسِيحَ، الَّذِي هُوَ النَّاسُوتُ، وَهُوَ الَّذِي جَاءَ مِن بَيْتِ المَقْدِسِ، وَخَرَجَ مِنْ مَوْضِعِهِ، وَنَزَلَ وَوَطِئَ عَلَى الأَرْضِ مِنْ أَجْلِ خَطِيئَةِ بَنِي يَعْقُوبَ فَإِنَّهُمْ لَمَّا أَخْطَأُوا وَبَدَّلُوا أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمُ المَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَطَاعَتِهِ، فَمَنْ آمَنَ بِهِ كَانَ سَعِيدًا مُسْتَحِقًّا لِلثَّوَابِ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ كَانَ شَقِيًّا مُسْتَحِقًّا لِلْعَذَابِ.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي بكرة وسبق بلفظه.

فَصْلٌ

قَالُوا: وَقَالَ مِيخَا[١] النَّبِيُّ: (وَأَنْتَ يَا بَيْتَ لَحْمٍ قَرْيَةُ يَهُودَا بَيْتُ أَفْرَاتَا، يَخْرُجُ لِي رَئِيسٌ الَّذِي يَرْعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا، لَكِنَّهُ لَا يَظْهَرُ إِلَّا فِي الأَيَّامِ الَّتِي تَلِدُهُ فِيهَا الوَالِدَةُ، وَسُلْطَانُهُ مِنْ أَقَاصِي الأَرْضِ إِلَى أَقَاصِيهَا).

وَالجَوَابُ: أَنَّ عَامَّةَ مَا يَذْكُرُونَهُ عَنِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ لَا لَهُم، كَمَا ذَكَرُوهُ عَنِ المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَمْرِ التَّثْلِيثِ، فَإِنَّهُ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ لَا لَهُم، وَهَكَذَا تَأَمَّلْنَا عَامَّةَ مَا يَحْتَجُّ بِهِ أَهْلُ البِدَعِ وَالضَّلَالَةِ مِنْ كَلَامِ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّهُ إِذَا تُدُبِّرَ حَقَّ التَّدَبُّرِ وُجِدَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ لَا لَهُم، فَإِنَّ كَلَامَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُدًى وَبَيَانٌ، وَهُمْ مَعْصُومُونَ لَا يَتَكَلَّمُونَ بِبَاطِلٍ.

فَمَنِ احْتَجَّ بِكَلَامِهِمْ عَلَى بَاطِلٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي كَلَامِهِمْ مَا يَبِينُ بِهِ أَنَّهُمْ أَرَادُوا الحَقَّ لَا البَاطِلَ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ فِي هَذِهِ النُّبُوَّةِ: (مِنْكَ يَخْرُجُ لِي رَئِيسٌ)، فَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ هَذَا الَّذِي يَخْرُجُ هُوَ رَئِيسُ اللهِ لَيْسَ هُوَ اللهَ، بَلْ هُوَ رَئِيسٌ لَهُ كَسَائِرِ الرُّؤَسَاءِ الَّذِينَ للهِ، وَهُمُ الرُّسُلُ وَالأَنْبِيَاءُ المُطَاعُونَ مِثْلُ: دَاوُدَ، وَ مُوسَى، وَغَيْرِهِمَا.

وَلِهَذَا قَالَ: (الَّذِي يَرْعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ)، وَلَوْ كَانَ هُوَ، لَكَانَ هُوَ رَاعِيَ شَعْبِ نَفْسِهِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: (وَهُوَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا) فَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي

---

(١) **ميخا**: سادس الأنبياء الصغار ويسمى المورشتي من مسقط رأسه مورشة قرية بقرب جت، تنبأ في ملك يوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا سنة ٧٥١-٦٩٣ق.م. كان معاصرًا لأشعيا الذي يشبهه في أسلوبه ونهج كتابته، ويتضمن سفر ميخا نبوات بخصوص السامرة وأورشليم وتنبأ بخراب السامرة تمامًا وبخراب أورشليم وسبي سكانها، ونبواته بخصوص المسيح دقيقة، حيث قال: «إن المسيح سيولد في بيت لحم اليهودية».

حَدِيثِ مَيْسَرَةَ الفَجْرِ[(١)]، وَقَدْ قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَتَى كُنْتَ نَبِيًّا؟ قَالَ: «**وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ**»[(٢)] وَفِي لَفْظٍ: مَتَى كُتِبْتَ نَبِيًّا؟ قَالَ: «**وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ**»، وَفِي مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَدَ عَنِ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنِّي عِنْدَ اللهِ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ أَمْرِي، أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي، رَأَتْ حِينَ وَلَدَتْنِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ**»[(٣)] فَقَدْ أَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا، وَكُتِبَ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ، وَأَنَّهُ مَكْتُوبٌ عِنْدَ اللهِ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَآدَمُ مُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ.

---

(١) **ميسرة الفجر**: صحابي جليل، ذكره البخاري والبغوي وابن السكن كما يقول ابن حجر في «الإصابة»، وقال ابن عبد البر: له صحبة نزل البصرة وليس له إلا هذا الحديث، عن رسول الله ﷺ: قلت: يا رسول الله! متى كنت نبيًا؟ قال: «**وآدم بين الروح والجسد...**» الحديث.
انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (٣/ ٤٧٠)، و«الاستيعاب» بهامش الإصابة (٣/ ٥١٨).
وقال في «الطبقات»: ميسرة الفجر وهو أبو بيل بن ميسرة العقيلي الذي روى عنه عبد الله بن شقيق، ثم ساق الحديث السابق.
انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٧/ ٦٠).

(٢) انظر الحديث الآتي.

(٣) وتمامه «**وكذلك ترى أمهات النبيين صلوت الله عليهم**».
أخرجه أحمد (٤/ ١٢٨) من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن سعيد بن سويد عن العرباض، به.
وإسناده ضعيف وفيه انقطاع.
أبو بكر بن أبي مريم ضعيف وقد قصر فيه فأسقط منه عبد الأعلى بن هلال الراوي عن العرباض، والراوي عنه سعيد بن سويد لا يصح حديثه كما قال البخاري.
وأخرجه الطبري [٢٠٧١] والحاكم (٢/ ٦٠٠) والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٨٣) من طريق أبي بكر بن أبي مريم، به.
وأخرجه أحمد (٤/ ١٢٧) والبخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٩٨-٦٩) ويعقوب بن سفيان في «المعرفة» (٢/ ٣٤٥) والطبري في «تفسيره» [٢٠٧٢][٢٠٧٣] وابن حبان [٦٤٠٤] والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٦٢٩) والآجري في «الشريعة» [٤٢١] وأبو نعيم في «الدلائل» [٩] والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٣٠) من طريق معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي، عن عبد الأعلى بن هلال عن العرباض، به. =

وَمُرَادُهُ ﷺ أَنَّ اللهَ كَتَبَ نُبُوَّتَهُ، وَأَظْهَرَهَا وَذَكَرَ اسْمَهُ، وَلِهَذَا جُعِلَ ذَلِكَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ بَعْدَ خَلْقِ جَسَدِ آدَمَ وَقَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ، كَمَا يُكْتَبُ رِزْقُ المَوْلُودِ وَأَجَلُهُ وَعَمَلُهُ، وَشَقِيٌّ هُوَ أَوْ سَعِيدٌ بَعْدَ خَلْقِ جَسَدِهِ، وَقَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُ القَائِلِ فِي المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ مَذْكُورٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا.

فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو[(١)]، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**قَدَّرَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ**»[(٢)].

= وإسناده ضعيف من غير انقطاع، لأجل سعيد بن سويد، فقد روى عنه اثنان ووثقه ابن حبان كعادته في توثيق المجاهيل. قال البخاري: لم يصح حديثه. وقال الحسيني في «الإكمال» ص[٢٥١]: مجهول.
والحديث يصح بشواهده دون قوله: «وكذلك أمهات النبيين...»، فهي زيادة منكرة، فله شاهد من حديث ميسرة الفجر.
أخرجه أحمد (٤/ ٦٦) وإسناده صحيح.
وشاهد من حديث أبي هريرة عند الترمذي [٣٦٨٨].
وشاهد من حديث أبي أمامة. أخرجه الطيالسي [١١٤٠] وابن سعد (١/ ١٠٢) وأحمد (٥/ ٢٦٢) والطبراني في «الكبير» [٧٧٢٩] وابن عدي (٦/ ٢٠٥٥) والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٨٤) من طريق الفرج بن فضالة عن لقمان بن عامر سمعت أبا أمامة، بلفظ: «قلت: يا نبي الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: «**دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نورٌ أضاءت منه قصور الشام**».
وإسناده ضعيف لضعف فرج بن فضالة.
بهذه الشواهد يصح الحديث دون الزيادة المشار إليها والله أعلم.

(١) **عبد الله بن عمرو**: هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد القرشي، أسلم قبل أبيه فكان رضي الله عنه صحابيًا جليلًا عالمًا فاضلًا. قال أبو هريرة رضي الله عنه: ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله ﷺ منى إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا أكتب، توفي بمصر وقيل بالطائف سنة خمس وستين رضي الله عنه.

(٢) صحيح: وقد خرجته في كتاب «معارج القبول» مطولًا بما يغني.

وَفِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ»، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ»**(١).

وَهُوَ قَدْ قَالَ: قَبْلَ أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا، وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّهُ كَانَ قَدِيمًا أَزَلِيًّا مَعَ اللهِ لَمْ يَزَلْ، كَمَا يَقُولُ النَّصَارَى: إِنَّهُ صِفَةُ اللهِ الأَزَلِيَّةُ، بَلْ وَقَّتَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «قَبْلَ أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا»، وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ فِي رَبِّ العَالَمِينَ كَانَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ، وَلَا ابْتِدَاءَ لِوُجُودِهِ فَلَا يُوَقَّتُ بِهَذَا المَبْدَأِ، لَا سِيَّمَا إِنْ أُرِيدَ بِكَوْنِ الدُّنْيَا عِمَارَتُهَا بِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ لَا تَدْخُلُ فِيهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، بَلْ يُجْعَلُ مِنَ الآخِرَةِ، وَأَرْوَاحُ المُؤْمِنِينَ فِي الجَنَّةِ فِي السَّمَاوَاتِ، وَيُرَادُ بِالدُّنْيَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا أَوِ الدَّارُ الدُّنْيَا.

وَلِهَذَا قَالَ: لَكِنَّهُ لَا يَظْهَرُ إِلَّا فِي الأَيَّامِ الَّتِي تَلِدُهُ فِيهَا الوَالِدَةُ كَمَا يَظْهَرُ غَيْرُهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ بَعْدَ أَنْ تَلِدَهُ أُمُّهُ.

وَالوَالِدَةُ إِنَّمَا وَلَدَتِ النَّاسُوتَ، وَأَمَّا اللَّاهُوتُ فَهُوَ عِنْدَهُمْ مَوْلُودٌ مِنَ اللهِ القَدِيمِ الأَزَلِيِّ، وَإِذَا قَالُوا فَهِيَ وَلَدَتِ اللَّاهُوتَ مَعَ النَّاسُوتِ كَانَ هَذَا مَعْلُومَ الفَسَادِ مِنْ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١) والبخاري [٣١٩١] [٨٤١٨] والدارمي في «الرد على الجهمية» ص[١٤] والطبراني (١٨/ ٤٩٩-٥٠٠) والبيهقي في «الأسماء» ص[٢٣١] وفي «السنن» (٩/ ٢-٣) وابن حبان [٦١٤٢] من طريق الأعمش عن جامع بن شداد عن صفوان بن محرز عن عمران بن الحُصين، به مطولًا.
وأخرجه أحمد (٤/ ٤٢٦-٤٣٣-٤٣٦) وابن أبي شيبة (١٢/ ٢٠٣) والبخاري [٤٣٦٥] [٤٣٨٦] والترمذي [٣٩٥١] والدارمي في «الرد» ص[١٤] والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٤٩٦) من طريق سفيان الثوري مختصرًا، عن جامع، به.
وأخرجه الطبري في «تفسيره» [١٧٩٨٢] وفي «تاريخه» (١/ ٣٨) وابن خزيمة في «التوحيد» ص[٣٧٦] من طريق المسعودي عن جامع، به.

وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، وَإِذَا قِيلَ: لِمَ خُصَّ عِيسَى المَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالذِّكْرِ؟ قِيلَ: كَمَا خُصَّ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالذِّكْرِ، لِأَنَّ أَمْرَ المَسِيحِ كَانَ أَظْهَرَ وَأَعْظَمَ مِمَّنْ قَبْلَهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ بَعْدَ مُوسَى.

وَكَذَلِكَ أَمْرُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانَ أَظْهَرَ وَأَعْظَمَ مِن أَمْرِ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، وَإِذَا عَظُمَ الشَّيْءُ كَانَ ظُهُورُهُ فِي الكِتَابِ أَعْظَمَ.

وَظَنُّ بَعْضِ النَّصَارَى أَنَّ المُرَادَ بِذَلِكَ وُجُودُ ذَاتِ المَسِيحِ، يُضَاهِي ظَنَّ طَائِفَةٍ مِنْ غُلَاةِ المُنْتَسِبِينَ إِلَى الإِسْلَامِ وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ ذَاتَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ مَوْجُودَةً قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ.

وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ خُلِقَ مِنْ نُورِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَوُجِدَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ، وَأَنَّ الأَشْيَاءَ خُلِقَتْ مِنْهُ حَتَّى قَدْ يَقُولُونَ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ النَّصَارَى فِي المَسِيحِ، حَتَّى قَدْ يَجْعَلُونَ مَدَدَ العَالَمِ مِنْهُ، وَيَرْوُونَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثَ وَكُلُّهَا كَذِبٌ، مَعَ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَقُولُونَ إِنَّ المُتَقَدِّمَ هُوَ اللَّاهُوتُ، بَلْ يَدَّعُونَ تَقَدُّمَ حَقِيقَتِهِ وَذَاتِهِ، وَيُشِيرُونَ إِلَى شَيْءٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، كَمَا تُشِيرُ النَّصَارَى إِلَى تَقَدُّمِ لَاهُوتٍ اتَّحَدَ بِهِ لَا حَقِيقَةَ لَهُ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ الغُلَاةِ مَنْ يَرْوِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ قَالَ: إِنِّي كُلِّي بَشَرٌ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ قَالَ لَسْتُ بِبَشَرٍ فَقَدْ كَفَرَ**» وَيَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فَيَجْعَلُونَ فِيهِ شَيْئًا مِنَ اللَّاهُوتِ مُضَاهَاةً لِلنَّصَارَى.

وَهَذَا الحَدِيثُ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ العِلْمِ بِالحَدِيثِ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ فِي الحَدِيثِ الَّذِي فِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّهُ قَالَ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(١).

---

(١) متفق عليه: وقد خرجته في غير ما موضع، منها: «فتح المجيد»، و«معارج القبول» للحكمي.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٣].

وَهَذَا مِنْ جِنْسِ الغُلَاةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ الرَّبَّ يَحُلُّ فِي الصَّالِحِينَ، وَيَتَكَلَّمُ عَلَى أَلْسِنَتِهِم، وَإِنَّ النَّاطِقَ فِي أَحَدِهِمْ هُوَ اللهُ لَا نَفْسُهُ، وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ النَّصَارَى فِي المَسِيحِ، وَيَقُولُ أَحَدُهُم: إِنَّ المُوَحِّدَ هُوَ المُوَحَّدُ، وَيُنْشِدُونَ:

مَا وَحَّدَ الوَاحِدَ مِنْ وَاحِدٍ ... إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ

تَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْتِهِ ... عَارِيَةٌ أَبْطَلَهَا الوَاحِدُ

تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ ... وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لَاحِدُ

وَهُوَ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ رُوحَ الإِنْسَانِ قَدِيمَةً أَزَلِيَّةً، وَيَقُولُونَ: هِيَ صِفَةُ اللهِ فَيَجْعَلُونَ نِصْفَ الإِنْسَانِ لَاهُوتًا، وَنِصْفَهُ نَاسُوتًا، لَكِنَّ اللَّاهُوتَ عِنْدَهُمْ هُوَ رُوحُهُ، لَا لَاهُوتٌ وَاحِدٌ كَمَا يَقُولُهُ النَّصَارَى وَعَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ مَعَ قَوْلِ النَّصَارَى يَكُونُ فِي المَسِيحِ وَأَمْثَالِهِ مِمَّنِ ادُّعِيَ فِيهِ اتِّحَادُ اللَّاهُوتِ بِهِ لَاهُوتَانِ: رُوحُهُ لَاهُوتٌ وَالكَلِمَةُ لَاهُوتٌ ثَانٍ، وَمِنْ جِنْسِ هَؤُلَاءِ مَنْ يُنْشِدُ مَا يُحْكَى عَنِ الحَلَّاجِ أَنَّهُ أَنْشَدَ:

سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ نَاسُوتُهُ ... سِرَّ سَنَا لَاهُوتِهِ الثَّاقِبِ

ثُمَّ بَدَا فِي خَلْقِهِ ظَاهِرًا ... فِي صُورَةِ الآكِلِ وَالشَّارِبِ

حَتَّى لَقَدْ عَايَنَهُ خَلْقُهُ ... كَلَحْظَةِ الحَاجِبِ لِلْحَاجِبِ

وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ نَفْسَهُ هِيَ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا، فَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ اللهُ أَوْ صِفَةُ اللهِ، بَلْ إِذَا قَالَ مَنْ يَدَّعِي أَنَّ رُوحَهُ كَانَتْ مَوْجُودَةً حِينَئِذٍ: المُرَادُ رُوحُهُ، كَانَ هَذَا أَقْرَبَ مِنْ قَوْلِ النَّصَارَى، وَفِي الجُمْلَةِ مَا يُخْبِرُ عَنِ المَسِيحِ أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا بِمَنْزِلَةِ مَا عِنْدَ أَهْلِ الكِتَابِ، عَنْ سُلَيْمَانَ أَنَّهُ قَالَ: (كُنْتُ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا) ثُمَّ قَدْ ثَبَتَ بِاتِّفَاقِ الخَلَائِقِ أَنَّ سُلَيْمَانَ لَمْ يَكُنِ اللَّاهُوتُ مُتَّحِدًا بِهِ، فَعُلِمَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الكَلَامِ لَا يُوجِبُ

اتِّحَادَ اللَّاهُوتِ بِهِ، بَلِ الْمُسْلِمُونَ يَعْدِلُونَ فِي القَوْلِ، وَيُفَسِّرُونَ كَلَامَ اللهِ فِي كُتُبِهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَيَجْعَلُونَ كَلَامَهُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، لَا يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

وَأَمَّا أَهْلُ الضَّلَالِ مِنَ النَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ فَيُفَضِّلُونَ الْمَفْضُولَ عَلَى مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ، وَيَبْخَسُونَ الفَاضِلَ حَقَّهُ، وَيَغْلُونَ فِي الْمَفْضُولِ وَيَبْخَسُونَ الأَنْبِيَاءَ حُقُوقَهُم، مِثْلَ تَنْقُصِهِمْ لِسُلَيْمَانَ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى يَطْعَنُونَ فِيهِ.

مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: كَانَ سَاحِرًا، وَأَنَّهُ سَحَرَ الجِنَّ بِسِحْرِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: سَقَطَ عَنْ دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ، فَيَجْعَلُونَهُ حَكِيمًا لَا نَبِيًّا، وَلِهَذَا ذَكَرَ اللهُ فِي القُرْآنِ تَبْرِئَةَ سُلَيْمَانَ عَنْ ذَلِكَ، وَذَلِكَ أَنَّ سُلَيْمَانَ سَأَلَ اللهَ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، فَسَخَّرَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ، فَسَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ، وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ، وَلَمَّا طَلَبَ مِنَ المَلَإِ أَنْ يَأْتُوهُ بِعَرْشِ (بِلْقِيسَ)(١) مَلِكَةِ اليَمَنِ، وَكَانَ هُوَ بِالشَّامِ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٣٨-٤٠].

فَلَمَّا مَاتَ سُلَيْمَانُ عَمَدَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الشِّرْكِ فَكَتَبُوهَا وَوَضَعُوهَا تَحْتَ كُرْسِيِّهِ، وَقَالُوا: كَانَ سُلَيْمَانُ يُسَخِّرُ الجِنَّ بِهَذَا، فَصَارَ هَذَا فِتْنَةً لِمَنْ صَدَّقَ بِذَلِكَ وَصَارُوا طَائِفَتَيْنِ، طَائِفَةً عَلِمَتْ أَنَّ هَذَا مِنَ الشِّرْكِ وَالسِّحْرِ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ، فَطَعَنَتْ فِي سُلَيْمَانَ كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى.

---

(١) **بلقيس ملكة اليمن**: هي بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل من بني يعفر بن سكسك من حمير، ملكة سبأ يمانية من أهل مأرب، أشير إليها في القرآن الكريم، وليت بعهد من أبيها في مأرب.

وَطَائِفَةٌ قَالَت: سُلَيْمَانُ نَبِيٌّ، وَإِذَا كَانَ قَدْ سَخَّرَ الجِنَّ بِهَذَا دَلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا جَائِزٌ، فَصَارُوا يَقُولُونَ وَيَكْتُبُونَ مِنَ الأَقْوَالِ الَّتِي فِيهَا الشِّرْكُ وَالتَّعْزِيمُ وَالإِقْسَامُ بِالشِّرْكِ وَالشَّيَاطِينِ - مَا تُحِبُّهُ الشَّيَاطِينُ وَتَخْتَارُهُ وَيُسَاعِدُونَهُمْ لِأَجْلِ ذَلِكَ عَلَى بَعْضِ مَطَالِبِ الإِنْسِ، إِمَّا إِخْبَارًا بِأُمُورٍ غَائِبَةٍ يَخْلِطُونَ فِيهَا كَذِبًا كَثِيرًا، وَإِمَّا تَصَرُّفًا فِي بَعْضِ النَّاسِ، كَمَا يُقْتَلُ الرَّجُلُ أَوْ يَمْرَضُ بِالسِّحْرِ، أَوْ تَسْرِقُ الشَّيَاطِينُ لَهُ بَعْضَ الأَمْوَالِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ إِعَانَةُ الشَّيَاطِينِ لِلْإِنْسِ عَلَى أُمُورٍ تُرِيدُهَا الإِنْسُ، لِأَجْلِ مُطَاوَعَةِ الإِنْسِ وَمُوَافَقَتِهِمْ لِلشَّيَاطِينِ عَلَى مَا تُرِيدُهُ الشَّيَاطِينُ مِنَ الكُفْرِ وَالفُسُوقِ وَالعِصْيَانِ.

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يُضِيفُ ذَلِكَ إِلَى سُلَيْمَانَ وَإِلَى «آصَفَ بْنِ بَرْخِيَا»[1] وَيُصَوِّرُونَ خَاتَمَ سُلَيْمَانَ، وَقَدْ يَأْخُذُونَ الرَّجُلَ الَّذِي صَارَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ إِلَى مَوَاضِعَ فَيُرُونَهُ شَخْصًا، وَيَقُولُونَ: هَذَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ، كَمَا قَدْ جَرَى مِثْلُ ذَلِكَ لِمَنْ نَعْرِفُهُ مِنَ المَشَايِخِ الَّذِينَ كَانَتْ تَقْتَرِنُ بِهِمُ الشَّيَاطِينُ، وَكَانَ لَهُمْ خَوَارِقُ شَيْطَانِيَّةٌ مِنْ جِنْسِ خَوَارِقِ السَّحَرَةِ وَالكُهَّانِ.

فَنَزَّهَ اللهُ تَعَالَى سُلَيْمَانَ مِنْ كَذِبِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَعَلُوهُ يُسَخِّرُ الشَّيَاطِينَ بِنَوْعٍ مِنَ الشِّرْكِ وَالسِّحْرِ، هَؤُلَاءِ جَرَّحُوهُ، وَهَؤُلَاءِ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ

---

(١) هو آصف بن برخيا، وكان صدِّيقًا يعلم الاسم الأعظم مؤمنًا من الإنس من بني إسرائيل، ذكر أنه أمر سليمان عليه السلام أن ينظر إلى اليمن التي فيها العرش ثم قام فتوضأ ودعا باسم الله الأعظم فمثل العرش بين يدي سليمان عليه السلام.

كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢-١٠٣].

وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ يُحْكَى عَنْ بَعْضِ الأَنْبِيَاءِ، أَوْ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ وَالدِّينِ، مِنْ أُمُورٍ لَيْسَتْ مِنْ شَرْعِ اللهِ، فَيُصَدِّقُ بِهَا بَعْضُ النَّاسِ، وَتَصِيرُ فِتْنَةً لِطَائِفَتَيْنِ مُصَدِّقَتَيْنِ بِهَا.

طَائِفَةٍ تَقْدَحُ فِي ذَلِكَ النَّبِيِّ أَوِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ بِمَا هُوَ مِنْهُ بَرِيءٌ.

وَطَائِفَةٍ تَقُولُ: إِنَّهَا تَتْبَعُهُ فِيمَ يَقُولُ، وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي كَثِيرٍ مِمَّا يَحْكِيهِ أَهْلُ الكِتَابِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ اليَهُودَ تَذْكُرُ عَنْهُمْ مَا يَقْدَحُ فِي نُبُوَّتِهِم.

وَالنَّصَارَى تَجْعَلُ ذَلِكَ قُدْوَةً لَهُمْ فِيمَا يَبْتَدِعُونَهُ، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، فَالمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الكَلَامَ الَّذِي وُصِفَ بِهِ المَسِيحُ إِمَّا وَصَفَهُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُ، أَوْ أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ - مَوْجُودٌ مِثْلُهُ فِي حَقِّ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمْ بِذَلِكَ لَاهُوتًا وَنَاسُوتًا، وَلَا اتَّحَدَ اللَّاهُوتُ بِالنَّاسُوتِ، وَلَا اسْتَحَقَّ أَحَدُهُمْ بِذَلِكَ أَنْ يُعْبَدَ وَيُصَلَّى لَهُ وَيُسْجَدَ وَيُدْعَى كَمَا يُدْعَى اللهُ، وَيُضَافَ إِلَيْهِ مَا يُضَافُ إِلَى اللهِ مِنَ الخَلْقِ وَالبَعْثِ وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ، وَلَيْسَ لِلْمَسِيحِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ آيَةٌ خَارِقَةٌ إِلَّا وَلِغَيْرِهِ مِثْلُهَا وَأَعْظَمُ مِنْهَا، وَلَا قِيلَ فِيهِ كَلِمَةٌ، إِلَّا قِيلَ فِي غَيْرِهِ مِثْلُهَا وَأَعْظَمُ مِنْهَا، إِلَّا مَا خَصَّهُ فِيهِ القُرْآنُ.

❁ ❁ ❁

فَصْلٌ

قَالُوا: وَقَالَ: حَبْقُوقُ النَّبِيُّ: (إِنَّ اللهَ فِي الأَرْضِ يَتَرَاءَى، وَيَخْتَلِطُ مَعَ النَّاسِ، وَيَمْشِي مَعَهُم). وَقَالَ أَرْمِيَا النَّبِيُّ: (اللهُ بَعْدَ هَذَا فِي الأَرْضِ يَظْهَرُ، وَيَنْقَلِبُ مَعَ البَشَرِ، فَيَقُولُ أَنَا اللهُ رَبُّ الأَرْبَابِ).

وَالجَوَابُ: أَنَّ هَذَا يَحْتَاجُ إِلَى تَثْبِيتِ نُبُوَّةِ هَذَيْنِ، وَإِلَى ثُبُوتِ النَّقْلِ عَنْهُمَا، وَثُبُوتِ التَّرْجَمَةِ الصَّحِيحَةِ المُطَابِقَةِ، وَبَعْدَ هَذَا يَكُونُ حُكْمُ هَذَا الكَلَامِ حُكْمَ نَظَائِرِهِ، فَفِي التَّوْرَاةِ مَا هُوَ مِنْ هَذَا الجِنْسِ، وَلَمْ يَدُلَّ ذَلِكَ بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِينَ، وَاليَهُودِ، وَالنَّصَارَى عَلَى أَنَّ اللهَ حَلَّ فِي مُوسَى، وَلَا فِي غَيْرِهِ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بَلْ قَوْلُهُ يَتَرَاءَى هُوَ بِمَنْزِلَةِ يَتَجَلَّى وَيَظْهَرُ، وَقَدْ ذُكِرَ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّهُ تَجَلَّى وَتَرَاءَى لِإِبْرَاهِيمَ وَغَيْرِهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ حَلَّتْ بِأَحَدٍ مِنْهُم، وَمَا فِي القُلُوبِ مِنَ المِثَالِ العِلْمِيِّ وَبِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَذِكْرِهِ - يُطْلَقُ عَلَيْهِ مَا يُطْلَقُ عَلَى المَعْرُوفِ بِنَفْسِهِ؛ لِعِلْمِ النَّاسِ أَنَّ المُرَادَ بِهِ المِثَالُ العِلْمِيُّ.

وَمَا فِي القُلُوبِ مِنْ مَعْرِفَةِ المَعْرُوفِ وَمَحَبَّتِهِ لَيْسَ المُرَادُ بِهِ نَفْسَ المَعْرُوفِ المَحْبُوبِ، فَإِذَا قَالَ القَائِلُ: أَنْتَ وَاللهِ فِي قَلْبِي، أَوْ فِي سُوَيْدَاءِ قَلْبِي، أَوْ قَالَ لَهُ: وَاللهِ مَا زِلْتَ فِي قَلْبِي، وَمَا زِلْتَ فِي عَيْنِي، وَنَحْوَ ذَلِكَ - عَلِمَ جَمِيعُ النَّاسِ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ ذَاتَهُ، فَإِذَا رَأَوْا مَنْ يَذْكُرُ عَالِمًا مَشْهُورًا أَوْ شَيْخًا مَشْهُورًا، فَيَذْكُرُ عِلْمَهُ، وَعَمَلَهُ، وَيُحْيِي ذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ - قَالُوا: قَدْ صَارَ فُلَانٌ، يَعْنِي المَعْرُوفَ المَذْكُورَ، عِنْدَنَا وَبَيْنَ أَظْهُرِنَا لِعِلْمِ المُخَاطَبِينَ بِالمُرَادِ.

وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ لِمَنْ مَاتَ وَالِدُهُ: أَنَا وَالِدُكَ؛ أَيْ قَائِمٌ مَقَامَهُ، وَيَقُولُونَ لِلْوَلَدِ القَائِمِ مَقَامَ أَبِيهِ: مَنْ خَلَّفَ مِثْلَكَ مَا مَاتَ، وَإِذَا رَأَوْا عِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ الَّذِي مَعَهُ عِلْمُهُ يَقُولُونَ: جَاءَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ بَيْنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّ مَوْلَاهُ نَائِبٌ عَنْهُ، وَقَائِمٌ مَقَامَهُ، وَإِذَا بَعَثَ المَلِكُ نَائِبًا قَائِمًا مَقَامَهُ يَقُولُونَ جَاءَ المَلِكُ الفُلَانِيُّ، لِأَنَّ هَذَا النَّائِبَ قَائِمٌ مَقَامَهُ مُظْهِرٌ لِأَمْرِهِ، وَنَهْيِهِ، وَأَحْوَالِهِ.

وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ: عَبْدِي مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، فَيَقُولُ العَبْدُ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ، فَيَقُولُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ، عَبْدِي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟، فَيَقُولُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا جَاعَ، فَلَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، عَبْدِي، عَطِشْتُ فَلَمْ تَسْقِنِي، فَيَقُولُ: رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي اسْتَسْقَاكَ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»[(١)].

فَجَعَلَ جُوعَ عَبْدِهِ جُوعَهُ، وَمَرَضَهُ مَرَضَهُ، لِأَنَّ العَبْدَ مُوَافِقٌ للهِ فِيمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَيَأْمُرُ بِهِ، وَيَنْهَى عَنْهُ، وَقَدْ عُرِفَ أَنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ لَا يَجُوعُ، وَلَا يَمْرَضُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ وَصْفَهُ بِالجُوعِ وَالمَرَضِ أَبْعَدُ مِنْ وَصْفِهِ بِالمَشْيِ بَيْنَ النَّاسِ، وَالِاخْتِلَاطِ بِهِم، وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ الأَنْبِيَاءِ، وَغَيْرِ الأَنْبِيَاءِ مِنَ الخَاصَّةِ، وَالعَامَّةِ، وَلَا يَفْهَمُ عَاقِلٌ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ ذَاتَ المَذْكُورِ اتَّحَدَتْ بِالآخَرِ أَوْ حَلَّتْ فِيهِ إِلَّا مَنْ هُوَ جَاهِلٌ كَالنَّصَارَى.

وَالنَّاسُ يَرَوْنَ الشَّمْسَ، وَالقَمَرَ، وَالكَوَاكِبَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ فِي المَاءِ الصَّافِي، وَفِي المِرْآةِ المَجْلُوَّةِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَيَقُولُ أَحَدُهُم: رَأَيْتُ وَجْهَ فُلَانٍ فِي هَذِهِ المِرْآةِ، وَرَأَيْتُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ فِي المِرْآةِ أَوْ فِي المَاءِ، مَعَ عِلْمِ كُلِّ عَاقِلٍ أَنَّ نَفْسَ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ وَغَيْرِهِمَا لَمْ تَحُلَّا لَا فِي المِرْآةِ وَلَا فِي المَاءِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ رُؤْيَةٌ مُقَيَّدَةٌ رَآهَا بِوَاسِطَةِ المِثَالِ الَّذِي تَمَثَّلَ فِي المِرْآةِ أَوِ المَاءِ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ شُعَاعًا مُنْعَكِسًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، وَمِنْ هَذَا البَابِ قَوْلُ القَائِلِ:

---

(١) سبق تخريجه.

إِذَا ظَهَرَ الغَدِيرُ عَلَى صَفَاءٍ ... وَجُنِّبَ أَنْ يُحَرِّكَهُ النَّسِيمُ
تَرَى فِيهِ السَّمَاءَ، بِلَا امْتِرَاءٍ ... كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْدُو وَالنُّجُومُ
كَذَاكَ قُلُوبُ أَرْبَابِ التَّجَلِّي ... يُرَى فِي صَفْوِهَا اللهُ العَظِيمُ

فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ اللهَ يُرَى فِي قُلُوبِ العَارِفِينَ، كَمَا تُرَى الشَّمْسُ وَالنُّجُومُ فِي المَاءِ الصَّافِي، بَلْ يَتَصَوَّرُ أَحَدُهُمْ صُورَةَ مَنْ يَعْرِفُهُ بِحُمْرَةٍ أَوْ خُضْرَةٍ أَوْ سَوَادٍ، فَيَقُولُ: وَاللهِ هَذَا هُوَ فُلَانٌ بِعَيْنِهِ، مَعَ عِلْمِهِ وَعِلْمِ كُلِّ مَنْ سَمِعَهُ أَنَّهُ مِثَالُهُ المُطَابِقُ لِصُورَتِهِ لَا عَيْنُهُ، وَذَلِكَ لِمُمَاثَلَةِ تِلْكَ الصُّورَةِ لِصُورَتِهِ، يُرِيدُ أَنَّ هَذَا تَمْثِيلٌ مُطَابِقٌ لَهُ لَا مُخَالِفٌ.

وَمِنْ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي حَقًّا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي**»[1] لَمْ يُرِدْ أَنَّهُ رَأَى جَسَدِي الَّذِي فِي القَبْرِ، وَرُوحِي الَّتِي فِي الجَنَّةِ - حَالَّةً فِي ذَاتِهِ، فَإِنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ لِوُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، فَلِهَذَا قَالَ: «**فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي**».

وَلَمَّا دَخَلَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ عَلَى المُقَوْقِسِ[2] مَلِكِ النَّصَارَى بِمِصْرَ، وَاسْتَخْبَرَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَأَخْبَرُوهُ بِذَلِكَ، فَإِذَا عِنْدَهُ شِبْهُ الرَّبْعَةِ العَظِيمَةِ مُذَهَّبَةٌ، وَإِذَا فِيهَا أَبْوَابٌ صِغَارٌ فَفَتَحَ مِنْهَا بَابًا فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ خِرْقَةَ حَرِيرٍ سَوْدَاءَ فِيهَا صُورَةٌ بَيْضَاءُ، فَإِذَا رَجُلٌ طُوَالٌ أَكْثَرُ النَّاسِ شَعْرًا، فَقَالَ: أَتَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالُوا: قُلْنَا لَا، فَقَالَ: هَذَا آدَمُ.

ثُمَّ أَعَادَ، وَفَتَحَ بَابًا آخَرَ، فَاسْتَخْرَجَ حَرِيرَةً سَوْدَاءَ فِيهَا صُورَةٌ بَيْضَاءُ، فَإِذَا رَجُلٌ ضَخْمُ الرَّأْسِ عَظِيمٌ لَهُ شَعْرٌ كَشَعْرِ النَّبَطِ أَحْمَرُ العَيْنِ، فَقَالَ: أَتَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَقُلْنَا: لَا، فَقَالَ: هَذَا نُوحٌ. ثُمَّ أَعَادَ، وَفَتَحَ بَابًا آخَرَ فَاسْتَخْرَجَ حَرِيرَةً سَوْدَاءَ فِيهَا صُورَةٌ بَيْضَاءُ، فَإِذَا رَجُلٌ أَبْيَضُ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ، كَأَنَّهُ يَبْتَسِمُ فَقَالَ أَتَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَقُلْنَا: لَا. فَقَالَ: هَذَا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) **المقوقس**: جريج بن مينا القبطي صاحب الإسكندرية وهو الذي أهدى إلى رسول الله ﷺ كسوة وبغلة وجاريتين.

إِبْرَاهِيمُ. ثُمَّ أَعَادَ، وَفَتَحَ بَابًا آخَرَ فَاسْتَخْرَجَ حَرِيرَةً سَوْدَاءَ فِيهَا صُورَةٌ بَيْضَاءُ، قَالَ: أَتَعْرِفُونَ هَذَا؟ قُلْنَا: النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ: هَذَا وَاللهِ مُحَمَّدٌ ﷺ رَسُولُ اللهِ.

قَالَ: وَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ قَامَ ثُمَّ قَعَدَ ثُمَّ قَالَ: اللهُ بِدِينِكُمْ إِنَّهُ نَبِيُّكُم؟ قُلْنَا: اللهُ بِدِينِنَا إِنَّهُ نَبِيُّنَا كَأَنَّمَا نَنْظُرُ إِلَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ كَانَ آخِرَ الأَبْوَابِ، وَلَكِنِّي عَجَّلْتُهُ لَكُمْ لِأَنْظُرَ مَا عِنْدَكُم.

ثُمَّ أَعَادَ، وَفَتَحَ بَابًا بَابًا، وَهُوَ يَقُولُ: هَذَا مُوسَى، هَذَا هَارُونُ، هَذَا دَاوُدُ، هَذَا سُلَيْمَانُ، هَذَا عِيسَى.

وَهَذَا كُلُّهُ لِظُهُورِ المُرَادِ بِهِ، وَمَعْرِفَةِ النَّاسِ بِمَقْصُودِ المُتَكَلِّمِ، كَمَا يُقَالُ لِمَنْ كَتَبَ اسْمَهُ فِي كِتَابٍ: هَذَا فُلَانٌ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ المَوْجُودَ فِي الكِتَابِ اسْمُهُ المَكْتُوبُ لَا ذَاتُهُ المَوْجُودَةُ فِي الخَارِجِ، وَمِنْ هَذَا البَابِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٥٢].

وَإِنَّمَا فِي الزُّبُرِ ذِكْرُ أَعْمَالِهِم، وَكِتَابَةُ ذَلِكَ، وَيُقَالُ فِي كِتَابَةِ الوَثَائِقِ: هَذَا مَا أَصْدَقَ فُلَانٌ، وَهَذَا مَا يُقَاضِي عَلَيْهِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، وَيُقَالُ: هَذَا ذِكْرُ مَا أَصْدَقَ فُلَانٌ أَوْ يُقَاضِي عَلَيْهِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فَيُشَارُ إِلَى المَوْجُودِ تَارَةً، وَإِلَى ذِكْرِهِ تَارَةً.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ المَوْجُودَ فِي الكِتَابِ ذِكْرُهُ لَا عَيْنُهُ، بَلْ ذَلِكَ وُجُودُ الخَطِّ فِي الأَذْهَانِ المُطَابِقِ لِذِكْرِهِ بِاللَّفْظِ.

وَالشَّيْءُ لَهُ وُجُودٌ فِي الأَعْيَانِ، وَوُجُودٌ فِي الأَذْهَانِ، وَوُجُودٌ فِي اللِّسَانِ، وَوُجُودٌ فِي البَنَانِ، وَوُجُودٌ عَيْنِيٌّ، وَعِلْمِيٌّ، وَرَسْمِيٌّ، وَلَفْظِيٌّ، وَفِي كُلٍّ مِنَ الأَرْبَعَةِ يُذْكَرُ، وَيُشَارُ إِلَيْهِ مَعَ القَرَائِنِ وَالضَّمَائِرِ الَّتِي تُبَيِّنُ تَارَةً أَنَّ المُشَارَ إِلَيْهِ هُوَ الخَطُّ المُطَابِقُ لِلَّفْظِ، وَتَارَةً تَكُونُ الإِشَارَةُ إِلَى اللَّفْظِ المُطَابِقِ لِلْمَعْنَى.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ المَعْنَى الَّذِي فِي القَلْبِ أَقْرَبُ إِلَى المَوْجُودِ فِي الخَارِجِ مِنَ اللَّفْظِ وَالخَطِّ، فَإِذَا أُشِيرَ إِلَى مَا فِي قَلْبِ العَارِفِ بِعَيْنِ المُحِبِّ لَهُ الذَّاكِرِ لَهُ، بِأَنَّهُ المَعْرُوفُ المَحْبُوبُ، كَانَ أَقْرَبَ لَا سِيَّمَا، وَقَدْ يَغْلِبُ الذِّكْرُ وَالمَعْرِفَةُ وَالمَحَبَّةُ عَلَى القَلْبِ حَتَّى يَغِيبَ بِمَوْجُودِهِ عَنْ وُجُودِهِ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَبِمَذْكُورِهِ عَنْ ذِكْرِهِ حَتَّى يَقُولَ أَحَدُهُمْ فِي هَذِهِ الحَالِ: سُبْحَانِي، أَوْ مَا فِي هَذِهِ الجُبَّةِ إِلَّا اللهُ.

وَمَعْلُومٌ أَنْ ذَاتَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَتِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ، بَلْ فِي قَلْبِهِ مِثَالُهُ العِلْمِيُّ، وَمَعْرِفَتُهُ، وَمَحَبَّتُهُ، فَغَابَ بِذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ، هَذَا وَإِنْ كَانَ يَقُولُهُ الغَالِطُ، فَيَقُولُ مَنْ لَيْسَ بِغَالِطٍ: اللهُ فِي قَلْبِ فُلَانٍ، وَفُلَانٌ مَا عِنْدَهُ إِلَّا اللهُ، وَمَنْ أَرَادَ اللهَ فَلْيَذْهَبْ إِلَى فُلَانٍ، وَلَيْسَ مُرَادُهُمْ أَنَّ ذَاتَ اللهِ فِي قَلْبِهِ، بَلْ مِثَالَهُ العِلْمِيَّ وَمَعْرِفَتَهُ وَذِكْرَهُ وَمَحَبَّتَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللهَ، وَلَا يَرْجُو إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا يَخَافُ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا يَعْمَلُ إِلَّا للهِ، وَلَا يَأْمُرُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ فَيَفْنَى بِعِبَادَتِهِ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، وَبِطَاعَتِهِ عَنْ طَاعَةِ مَا سِوَاهُ، وَبِمَحَبَّتِهِ عَنْ مَحَبَّةِ مَا سِوَاهُ.

فَمَا قِيلَ فِي المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَمْثَالِهِ مِنْ هَذَا فَهُوَ حَقٌّ، لَكِنْ لَا اخْتِصَاصَ لِلْمَسِيحِ بِهَذَا.

وَإِذَا كَانَ مِثْلُ هَذَا الكَلَامِ كَثِيرًا مَوْجُودًا فِي كَلَامِ الأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِم، بَلْ هُوَ المَعْرُوفُ فِي كَلَامِهِم، وَلَا يُوجَدُ قَطُّ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ أَنَّهُ جَعَلَ ذَاتَ اللهِ فِي قَلْبِ أَحَدٍ مِنَ البَشَرِ - عُلِمَ أَنَّ النَّصَارَى تَرَكُوا المُحْكَمَ مِنْ كَلَامِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَتَمَسَّكُوا بِالمُتَشَابِهِ كَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الضُّلَّالِ، فَاشْتَبَهَ عَلَيْهِمُ المَعْلُومُ بِالقُلُوبِ المَذْكُورُ بِالأَلْسُنِ بِالمَوْجُودِ فِي نَفْسِهِ، فَظَنُّوا أَنَّ نَفْسَ المِثَالِ العِلْمِيِّ هُوَ المَوْجُودُ العَيْنِيُّ، كَمَا يَظُنُّ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ الغَالِطِينَ، وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ بِالحُلُولِ تَارَةً، وَبِالِاتِّحَادِ أُخْرَى، وَلَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ حُلُولِ الإِيمَانِ وَالمَعْرِفَةِ وَالمَحَبَّةِ وَالمِثَالِ العِلْمِيِّ فِي القَلْبِ، وَبَيْنَ حُلُولِ الذَّاتِ المَعْلُومَةِ المَحْبُوبَةِ.

وَهٰذَا يَعْتَقِدُ كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يُكَلِّمُونَ اللهَ، وَيُكَلِّمُهُم، وَيَقُولُ أَحَدُهُم: أَوْقَفَنِي، وَقَالَ لِي، وَقُلْتُ لَهُ. وَتَكُونُ مُخَاطَبَتُهُ وَمُنَاجَاتُهُ مَعَ هَذَا الْمِثَالِ الْعِلْمِيِّ بِحَسَبِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الِاعْتِقَادِ فِي اللهِ تَعَالَى، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَتَمَثَّلُ لَهُ الشَّيْطَانُ وَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكَ، فَيُخَاطِبُهُ وَيَظُنُّهُ رَبَّهُ، وَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ.

وَمِنْهُم: مَنْ يَرَى عَرْشًا عَلَيْهِ نُورٌ، أَوْ يَرَى مَا يَظُنُّهُ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ شَيَاطِينُ، وَذَلِكَ شَيْطَانٌ.

وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَظُنُّ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّهُ يَدْخُلُ إِلَى اللهِ بِلَا إِذْنٍ، خِلَافَ الأَنْبِيَاءِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ الإِلَهُ الَّذِي يَعْتَقِدُهُ هُوَ الشَّيْطَانَ، وَالَّذِينَ لَا يَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ يُخَاطِبُ أَحَدُهُمْ مَنْ فِي قَلْبِهِ، فَتُخَاطِبُهُ تِلْكَ الصُّورَةُ العِلْمِيَّةُ، وَيُقَدِّرُ أَنَّهَا تُخَاطِبُهُ، وَيَظُنُّ ذَلِكَ مُخَاطَبَةَ الحَقِّ لَهُ.

وَهَذَا كَالرَّجُلِ يَذْكُرُ بَعْضَ أَصْحَابِهِ فَيُمَثِّلُهُ فِي قَلْبِهِ وَيُخَاطِبُهُ مُخَاطَبَةَ مَنْ يُعَاتِبُهُ أَوْ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ، وَيُقَدِّرُ خِطَابَ تِلْكَ الصُّورَةِ، وَيَقُولُ: قُلْتُ لَكَ كَذَا، وَقُلْتَ لِي كَذَا.

وَنَفْسُ الشَّخْصِ لَا يُكَلِّمُهُ وَلَا يَسْمَعُ كَلَامَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ المِثَالُ، كَمَا قَدْ يُصَوِّرُ صُورَةَ الإِنْسَانِ وَيُخَاطِبُهَا الإِنْسَانُ، وَيُقَدِّرُ ذَلِكَ مُخَاطَبَةً لِصَاحِبِ الصُّورَةِ.

وَالنَّصَارَى أَدْخَلُ فِي هَذَا مِنْ غَيْرِهِم، فَإِنَّهُمْ يُخَاطِبُونَ الصُّوَرَ الْمُمَثَّلَةَ فِي الكَنَائِسِ كَصُورَةِ مَرْيَمَ، وَالمَسِيحِ وَالقِدِّيسِينَ، وَيَقُولُونَ: إِنَّمَا نَقْصِدُ خِطَابَ أَصْحَابِ تِلْكَ الصُّوَرِ نَسْتَشْفِعُ بِهِم.

وَهَذَا مِمَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى أَلْسُنِ جَمِيعِ النَّبِيِّينَ، وَلَمْ يَشْرَعْ لِأَحَدٍ أَنْ يَدْعُوَ المَلَائِكَةَ، وَلَا الأَنْبِيَاءَ وَلَا الصَّالِحِينَ الأَمْوَاتَ، فَكَيْفَ بِالصُّوَرِ الْمُمَثَّلَةِ لَهُم، كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

وَالمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ النَّاسِ الأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ ذِكْرِ ظُهُورِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالْمُرَادُ بِهِ ظُهُورُهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ بِالْمَعْرِفَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالذِّكْرِ.

وَهَذَا لَمَّا كَانَ يُقْصَدُ بِذِكْرِ اسْمِهِ ذِكْرُ المُسَمَّى صَارَ يَقُولُ - مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الِاسْمَ هُوَ المُسَمَّى -: إِنَّ المُرَادَ المَقْصُودَ مِنَ الِاسْمِ هُوَ المُسَمَّى، لَا أَنَّ نَفْسَ اللَّفْظِ هُوَ المُسَمَّى، فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ، وَتَنْزِيهُ الِاسْمِ وَتَسْبِيحُهُ تَنْزِيهٌ لِلْمُسَمَّى وَتَسْبِيحٌ لَهُ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

وَقَالَ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦].

وَقَالَ: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**لَا تَقُومُ القِيَامَةُ حَتَّى لَا يُعْبَدَ للهِ اسْمٌ**»(١)، أَيْ لَا يُعْبَدَ اللهُ بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا قِيلَ: دَعَوْتُ اللهَ وَعَبَدْتُهُ، فَإِنَّمَا فِي اللَّفْظِ الِاسْمُ، وَالمَقْصُودُ هُوَ المُسَمَّى.

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَفْسِيرِ ظُهُورِ اللَّاهُوتِ فِي المَسِيحِ وَغَيْرِهِ بِأَنَّ المُرَادَ ظُهُورُ مَا فِي القُلُوبِ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَذِكْرِهِ وَنُورِهِ وَهُدَاهُ وَرُوحِهِ - هُوَ مِمَّا يُفَسِّرُ بِهِ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ النَّصَارَى، فَإِنَّهُمْ يُفَسِّرُونَ اتِّحَادَ اللَّاهُوتِ بِالنَّاسُوتِ بِظُهُورِ اللَّاهُوتِ فِيهِ كَظُهُورِ نَقْشِ الخَاتَمِ فِي الشَّمْعِ وَالطِّينِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الحَالَّ فِي الشَّمْعِ وَالطِّينِ هُوَ مِثَالُ نَقْشِ الخَاتَمِ لَا أَنَّ فِي الشَّمْعِ وَالطِّينِ شَيْئًا مِنَ الخَاتَمِ، بَلْ ظَهَرَ فِيهِ نَقْشُ الخَاتَمِ.

وَكَذَلِكَ يَظْهَرُ نُورُ اللهِ وَرُوحُهُ فِي الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَهَذَا المَعْنَى لَا يَخْتَصُّ بِهِ المَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَلْ يَشْتَرِكُ هُوَ فِيهِ وَسَائِرُ الرُّسُلِ، بَلْ وَكُلُّ مُؤْمِنٍ لَهُ مِنْ هَذَا نَصِيبٌ بِحَسَبِ إِيمَانِهِ.

---

(١) رواه مسلم [٢٣٤] عن أنس بلفظ: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله**» وروى نحوه أحمد (٣/ ٨٧) عن أبي سعيد.

فَصْلٌ

قَالُوا: وَقَالَ أَشْعِيَا النَّبِيُّ: (هَا هِيَ العَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَيُدْعَى اسْمُهُ عِمَّانُوِيلَ).

وَعِمَّانُوِيلُ: كَلِمَةٌ عِبْرَانِيَّةٌ تَفْسِيرُهَا بِالعَرَبِيِّ (إِلَهُنَا مَعَنَا) فَقَدْ شَهِدَ النَّبِيُّ أَنَّ مَرْيَمَ، وَلَدَتِ اللَّاهُوتَ الْمُتَّحِدَ بِالنَّاسُوتِ كِلَاهُمَا.

فَيُقَالُ: لَيْسَ فِي هَذَا الكَلَامِ أَنَّ مَرْيَمَ وَلَدَتِ اللَّاهُوتَ الْمُتَّحِدَ بِالنَّاسُوتِ)، وَأَنَّهَا وَلَدَتْ خَالِقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، بَلْ هَذَا الكَلَامُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَوْلُودَ لَيْسَ هُوَ خَالِقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَإِنَّهُ قَالَ: تَلِدُ ابْنًا.

وَهَذَا نَكِرَةٌ فِي الإِثْبَاتِ كَمَا يُقَالُ فِي سَائِرِ النِّسَاءِ: إِنَّ فُلَانَةَ وَلَدَتِ ابْنًا، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ ابْنٌ مِنَ البَنِينَ، لَيْسَ هُوَ خَالِقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرَضِينَ، ثُمَّ قَالَ: وَيُدْعَى اسْمُهُ (عِمَّانُوِيلَ) فَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ هَذَا اسْمٌ يُوضَعُ لَهُ، وَيُسَمَّى بِهِ كَمَا يُسَمِّي النَّاسُ أَبْنَاءَهُمْ بِأَسْمَاءِ الأَعْلَامِ، أَوِ الصِّفَاتِ الَّتِي يُسَمُّونَهُمْ بِهَا.

وَمِنْ تِلْكَ الأَسْمَاءِ مَا يَكُونُ مُرْتَجَلًا ارْتَجَلُوهُ.

وَمِنْهَا مَا يَكُونُ جُمْلَةً يَحْكُونَهَا، وَلِهَذَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ يُسَمِّي ابْنَهُ عِمَّانُوِيلَ، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: العَذْرَاءُ الْمُرَادُ بِهَا غَيْرُ مَرْيَمَ، وَيَذْكُرُونَ فِي ذَلِكَ قِصَّةً جَرَت.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلِ الْمُرَادُ بِهَا مَرْيَمُ، وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فَيَكُونُ الْمُرَادُ أَحَدَ مَعْنَيَيْنِ:

إِمَّا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنَّ إِلَهَنَا مَعَنَا بِالنَّصْرِ وَالإِعَانَةِ، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا قَدْ خُذِلُوا بِسَبَبِ تَبْدِيلِهِم، فَلَمَّا بُعِثَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالحَقِّ كَانَ اللهُ مَعَ مَنِ اتَّبَعَ الْمَسِيحَ، وَالْمَسِيحُ نَفْسُهُ لَمْ يَبْقَ مَعَهُم، بَلْ رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ وَلَكِنَّ اللهَ كَانَ مَعَ مَنِ اتَّبَعَهُ بِالنَّصْرِ وَالإِعَانَةِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وَهَذَا أَظْهَرُ، وَإِمَّا أَن (يَكُونَ) يُسَمَّى المَسِيحُ إِلَهًا، كَمَا يَقُولُونَ: إِنَّهُ يُسَمَّى مُوسَى إِلَهَ فِرْعَوْنَ، أَيْ هُوَ الآمِرُ النَّاهِي لَهُ المُسَلَّطُ عَلَيْهِ.

وَقَدْ حَرَّفَ بَعْضُهُمْ مَعْنَى هَذِهِ الكَلِمَةِ، فَقَالَ: مَعْنَاهَا: اللهُ مَعَنَا، فَقَالَ: مَنْ رَدَّ عَلَيْهِمْ مِنْ عُلَمَائِهِمْ يُقَالُ لَهُم: أَهَذَا هُوَ القَائِلُ: أَنَا الرَّبُّ لَا إِلَهَ غَيْرِي، أَنَا أُمِيتُ وَأَنَا أُحْيِي، أَمْ هُوَ القَائِلُ للهِ: إِنَّكَ أَنْتَ الإِلَهُ الحَقُّ وَحْدَكَ وَالَّذِي أَرْسَلْتَ يَسُوعَ المَسِيحَ؟ وَإِذَا كَانَ الأَوَّلُ بَاطِلًا، وَالثَّانِي هُوَ الَّذِي شَهِدَ بِهِ الإِنْجِيلُ، وَجَبَ تَصْدِيقُ الإِنْجِيلِ، وَتَكْذِيبُ مَنْ كَتَبَ فِي الإِنْجِيلِ أَنَّ (عِمَّانُوِيلَ) وَتَأْوِيلَهُ - (اللهُ مَعَنَا)، بَلْ تَأْوِيلُ عِمَّانُوِيلَ (مَعَنَا إِلَهٌ)، وَلَيْسَ المَسِيحُ مَخْصُوصًا بِهَذَا الِاسْمِ، بَلْ عِمَّانُوِيلُ اسْمٌ يُسَمَّى بِهِ النَّصَارَى، وَاليَهُودُ مِنْ قَبْلِ النَّصَارَى.

وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي عَصْرِنَا هَذَا، فِي أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ سَمَّاهُ أَبُوهُ عِمَّانُوِيلَ يَعْنِي (شَرِيفَ القَدْرِ) وَكَذَلِكَ السُّرْيَانُ أَكْثَرُهُمْ يُسَمُّونَ أَوْلَادَهُمْ عِمَّانُوِيلَ.

قُلْتُ: وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ وَالمُحْسِنِينَ وَالمُقْسِطِينَ بِالهِدَايَةِ، وَالنَّصْرِ، وَالإِعَانَةِ، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ فِي الدُّعَاءِ: اللهُ مَعَكَ، فَإِذَا سُمِّيَ الرَّجُلُ بِقَوْلِ: (اللهُ مَعَكَ) كَانَ هَذَا تَبَرُّكًا بِمَعْنَى هَذَا الِاسْمِ، وَإِذَا قِيلَ إِنَّ المَسِيحَ سُمِّيَ اللهَ مَعَنَا أَوْ إِلَهَنَا مَعَنَا وَنَحْوَ ذَلِكَ - كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ اللهَ مَعَ مَنِ اتَّبَعَ المَسِيحَ وَآمَنَ بِهِ، فَيَكُونُ اللهُ هَادِيَهُ وَنَاصِرَهُ وَمُعِينَهُ.

❁❁❁